الدكتور عبد الوهاب المسيري

الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان



الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان

الطبعة الأولى :2002

الطبعة الثانيه :2007

إصدار دار الفكر دمشق-سوريا

المؤلف:

الدكتور عبد الوهاب المسيرى

معلومات عنه:

متخصص بالدراسات الصهيونيه

من مواليد دمنهور بمصر العربيه "1938"

الأعمال السابقة والحاليه

-رئيس وحدة الفكر الصهيونى وعضو مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسيه والإستراتيجيه بالأهرام.

-مستشار ثقافى للوفد الدائم بجامعة الدول العربيه فى هيئة الأمم المتحده.

-أستاذ الأدب الأنكليزى والمقارن بجامعات عين شمس والملك سعود والكويت.

-مستشار أكاديمى للمعهد العالمى للفكر الإسلامى بواشنطن.

-عضو مجلس الأمناء لجامعة العلوم الإسلاميه والإجتماعيه ,ليسبرج فيرجينيا.

له مؤلفات متميزه كثيره بالعربيه والأنجليزيه تتناول بحوثاً عن اليهوديه والصهيونيه وتاريخهما وفكرهما وأزماتهما وإشكاليات العنف والتحيز القائمة فيهما

*الفصل الثامن: المادية والأبادة

-الإبادة وتفكيك الإنسان كإمكانية كامنةً فى الحضارة الغربية الحديثة

-تحول الإمكانية الإبادية إلى حقيقةً تاريخية

-إشكالية إنفصال القيمة والغائية الإنسانية عن العلم والتكنولوجيا

مُـقَــدَّمةً

تشـــكَّل الفلســـفة الماديـــه البنْيـــة الفكريـــة التحتيـــة او النمـــوذج المعرفـــى الكـــامن للعديـــد مـــن الفلســـفات الحديثة:الماركســـية والبرجماتيـــه والداروينيـــة،كما انهـــا تشـــكَّل الاطـــار المرجعـــى الكـــامن لرؤيتنـــا للتـــاريخ والتقـــدُّم وللعلاقـــات الدوليـــة،بل وأحيانـــاً لأنفســـنا .وقـــد ارتبطـــت الفلســـفة الماديـــة فـــى عقـــول الكثيـــرين بالعقلانيـــة والتقـــدُّم والتســـامح...إلخ.وأعتقد انـــه حـــان الوقـــت لفـــتح بـــاب الإجتهـــاد بخصـــوص هـــذه الفلســـفة ، نظـــراً لأهميتهـــا وهيمنتهـــا علـــى بعـــض أعضـــاء النخـــب الثقافيـــة والفكريـــة.

ويمكـــن تصـــنيف هـــذا الكتـــاب بإعتبـــاره محاولـــةً فـــى هـــذا الإتجـــاه.

وقـــد خُصَّـــص الفصـــل الأول ((الإنســـان والمـــادة)) لتعريـــف الفلســـفة الماديـــة وســـر جاذبيتهـــا ومـــواطن قصـــورها ، كمـــا يعـــرض الفصـــل نفســـه ،فـــى بدايتـــــــه ، للظـــــــاهرة الإنســـــــانية وســـــــماتها الأساســـــــية.

ويقـــوم الفصـــل الثـــانى ((إشـــكالية الطبيعـــى والإنســـانى)) بتوضـــيح الفـــروق الأساســـية بـــين الظـــاهرة الطبيعيـــة والظـــاهرة الإنســـانية ، وفشـــل الفلســـفة الماديـــة فـــى تفســـير ظـــاهرة الإنســـان ، بـــل ويـــذهب هـــذا الفصـــل إلـــى أن هـــذه الفلســـــفة تشـــــكل هجومـــــاً علـــــى الطبيعـــــة البشـــــرية.

ويتنـــاول الفصـــل الثالـــث ((العقـــل والمـــادة)) مفهـــوم العقـــل ،فيبَّـــين ان العقـــل فـــى حـــد ذاتـــه مفهـــوم عـــائم غـــائم وأن المهـــم هـــو النمـــوذج الكـــامن وراء العقـــل .وإنطلاقـــاً مـــن هـــذا التصـــوُّر تحـــاول الدراســـة حصـــر اهـــم ســـمات

العقـــل المـــادى ، كمـــا تحـــاول توضـــيح الفـــروق بـــين العقـــل الأداتـــى والعقـــل النقـــــــــــــدى.

ويتنـــاول الفصـــل الرابـــع ((الماديـــة والتـــاريخ)) بعـــض التجليـــات التاريخيـــة للفلســـفة الماديـــة ، فيبَّـــين ان العلمانيـــة الشـــاملة والإمبرياليـــة والداروينيـــة هـــى كلهـــــــا تجليـــــــات متنوعـــــــة للفلســـــــفة الماديـــــــة.

أمـــا الفصـــل الخـــامس ((الترشـــيد والقفـــص الحديـــدى)) فيتنـــاول الترشـــيد او العلمنـــة بمعنـــى إعـــادة صـــياغة المجتمـــع والإنســـان فـــى الإطـــار المـــادى ، وكيـــف أن هـــذا يـــؤدى فـــى نهايـــة الامـــر إلـــى تنمـــيط الحيـــاة ووهـــم الـــتحكُّم الكامـــــــــــل فيهـــــــــا.

والفصـــل الســـادس هـــو أمتـــداد لهـــذا الفصـــل، فنهايـــة التـــاريخ هـــى ، فـــى واقـــع الامـــر النقطـــة التـــى يتخيـــل الـــبعض أنهـــا النقطـــة التـــى يـــتم الـــتحكُّم فيهـــا فـــى معظـــم جوانـــب الحيـــاة ، بحيـــث يصـــبح المجتمـــع كالآلـــة الرشـــيدة.وقد ميَّـــزت الدراســـة فـــى الفصـــل الثـــانى بـــين المســـاواة والتســـوية علـــى المســـتوى النظـــرى.

والفصـــل الســـابع ((العنصـــرية الغربيـــة فـــى عصـــر مـــا بعـــد الحداثـــة)) هـــو محاولـــةً لتطبيـــق هـــذا المفهـــوم علـــى ظـــاهرة العنصـــرية الغربيـــة.

والفصـــل الثـــامن والأخيـــر ((الماديـــة والإبـــادة)) يبيـــَّن كيـــف ان الرؤيـــة الماديـــة هـــى رؤيـــةً إباديـــة فـــى جوهرهـــا، ويطبـــق الفصـــل هـــذا التصـــوُّر علـــى ظـــاهرة الإبـــادة النازيـــة لليهـــود وغيـــرهم مـــن الأقليـــات.

وهـــذه الدراســـة، شـــأنها شـــأن معظـــم دراســـاتى فـــى الآونـــة الأخيـــرة ،تســـتخدم النمـــوذج المعرفـــى أداةً تحليليـــة ، فتقـــدَّم دراســـةً فـــى النمـــوذج المعرفـــى المـــادى فـــى حـــد ذاتـــه ،ثـــم تجلياتـــه النظريـــة والتاريخيـــة المختلفـــة.وبالتالى فالدراســـة لا تأخـــذ خطـــاً مســـتقيماً تراكميـــاً وإنمـــا تأخـــذ شـــكل بؤرة(النمـــوذج التحليلـــى) تتفـــرع منهـــا وتعـــود إليهـــا كـــل الموضـــوعات .وهـــذه الطريقـــة تبـــيِّن الوحـــدة الكامنـــة (الماديـــة وتفكيـــك الإنســـان) خلـــف التنـــوع (الدراســـات المختلفـــة)،ولكنهـــا قـــد تـــؤدى إلـــى بعـــض التكـــرار . وقـــد بـــذلت جهـــداً كبيـــراً لتحاشـــــــــــى ذلـــــــــــك أو التقليـــــــــــل منـــــــــــه.

ومعظـــم مـــادة هـــذا الكتـــاب تُنشـــر لأول مـــرة،ولكن بعضـــها نُشـــر قبـــل ذلـــك ،إمـــا علـــى هيئـــة مقـــالات أو فـــى كتـــب .ولكنـــى وجـــدت أن جمعهـــا كلهـــا فـــى كتـــاب واحـــد يـــدور حـــول موضـــوع واحـــد ، مـــع توضـــيح النمـــوذج المعرفـــى الكـــامن وراء كـــل الدراســـات ، سيســـاعد كثيـــراً علـــى توضـــيح الأطروحـــة الأساســـية فـــى الكتـــاب ،ويبـــرِّر إعـــادة نشـــر هـــذه المـــادة.

ويبقـــى هـــذا العمـــل إجتهـــاداً اوليـــاً نرجـــو أن نكـــون قـــد أصـــبنا فـــى بعـــض نقاطـــه إن لـــم نصـــب فـــى جميعهـــا ، وأن يكتـــب الله لنـــا أجـــرى الصـــواب ،وإلا ، فلعلنـــــــــــا لانحـــــــــــرم الأجـــــــــــر الواحـــــــــــد.

والله من وراء القصد

عبد الوهاب المسيرى

دمنهـــــــــــــــــــــــــــــــــــــور – القـــــــــــــــــــــــــــــــــــــاهرة

كانون الثاني (يناير) 2002م

الفصل الأول

الإنسان والمادة

هل الإنسان كائن مادي وحسب؟ هل هو جزء لا يتجزأ من هذا العالم المادي الطبيعي خاضع لقوانينه لا يملك منها فكاكاً، لا يختلف في سماته الأساسية عن الكائنات الأخرى؟ هذه أسئلة جوهرية تحدِّد رؤيتنا للكون، ولذا لابد من الإجابة عنها إن أردنا توضيح موقفنا وتحيُّزاتنا الفكرية.

الطبيعة البشرية

تتسم الطبيعة البشرية في تصورنا بثنائية أساسية لا يمكن تصفيتها (هي صدى للثنائية الحاكمة الكبرى، ثنائية الخالق والمخلوق، والمتجاوز والحالّ الكامن) وهي ثنائية الجانب الطبيعي/ المادي في مقابل الجانب غير المادي، أي الروحي أو الثقافي أو المعنوي. فثمة احتياجات طبيعية/ مادية، مثل حاجة البشر إلى الطعام والهواء والنوم والتناسل وتلبية كل ما يتعلق بتركيبهم العضوي (بغض النظر عن أماكن إقامتهم أو نمط الحضارة الذي ينتمون إليه). فالإنسان هنا هو موجود مادي متجسد يشارك بقية الكائنات في بعض الصفات، فمن حيث هو جسم، يخضع الإنسان للقوانين الطبيعية وضرورات الحياة العضوية إذ تسري

عليه، وعلى بقية الكائنات، مجموعة من الآليات والحتميات. ولذا يمكن رصد هذا الجانب من وجوده من خلال النماذج المستمدة من العلوم الطبيعية (ويعبِّر عن نفسه فيما نسميه النزعة الجنينية). والفلسفات المادية، منطلقة من مرجعيتها المادية ومن إيمانها بأسبقية الطبيعة/ المادة على الإنسان، تركز على هذا الجانب من الوجود الإنساني وترد كل جوانبه الأخرى إليه.

ولكن هناك جانباً آخر للطبيعة البشرية متجاوزاً للطبيعة/ المادة وغير خاضع لقوانينها ومقصوراً على عالم الإنسان ومرتبطاً بإنسانيته، وهو يعبِّر عن نفسه من خلال مظاهر عديدة من بينها نشاط الإنسان الحضاري (الاجتماع الإنساني – الحس الخلقي – الحس الجمالي – الحس الديني). ومن المظاهر الأخرى لهذا الجانب أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح تساؤلات عما يسمَّى العلل الأولى، وهو لا يكتفي أبداً بما هو كائن وبما هو معطى ولا يرضى بسطح الأشياء، فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعاني الكلية الكامنة وراءها والتي ينسبها إليها، وهو الكائن الوحيد الذي يبحث عن الغرض من وجوده في الكون. وكلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري، ولذا سمى الإنسان الحيوان الميتافيزيقي. والإنسان كائن واعٍ بذاته والكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/ المادية وعالم الطبيعة/ المادة، وهو عاقل قادر على استخدام عقله، ولذا فهو قادر على إعادة صياغة ذاته وبيئته حسب رؤيته.

وهو كائن صاحب إرادة حرة على الرغم من الحدود الطبيعية والتاريخية التي تحده. والحرية قائمة في نسيج الوجود البشري ذاته، فإن الإنسان له تاريخ يروي تجاوزه لذاته (وتعثره وفشله في محاولاته). فالتاريخ تعبير عن إثبات الإنسان لحريته وفعله في الزمان والمكان.

وهو كائن قادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي/ المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وخرقها، وهو الكائن الوحيد الذي طوَّر نسقاً من المعاني الداخلية والرموز التي يدرك من خلالها الواقع.

وهو، أخيراً، النوع الوحيد الذي يتميَّز كل فرد فيه بخصوصيات لا يمكن محوها أو تجاهلها، فالأفراد ليسوا نسخاً متطابقة يمكن صبها في قوالب جاهزة وإخضاعها جميعاً للقوالب التفسيرية نفسها، فكل فرد وجود غير مكتمل، مشروع يتحقق في المستقبل، واستمرار للماضي، ولذا فزمن الإنسان هو زمن العقل والإبداع والتغيير والمأساة والملهاة والسقوط، وهو المجال الذي يرتكب فيه الإنسان الخطيئة والذنوب، وهو أيضاً المجال الذي يمكنه فيه التوبة والعودة، وهو المجال الذي يعبِّر فيه عن نبله وخساسته وبهيميته، فالزمان الإنساني ليس مثل الزمان الحيواني الخاضع لدورات الطبيعة الرتيبة، فهو زمان التكرار والدوائر التي لا تنتهي و((العود الأبدي)). ولكل هذا، فإن ممارسات الإنسان

ليست انعكاساً بسيطاً أو مركباً لقوانين الطبيعة/ المادة، فهو مختلف كيفيًّا وجوهريًّا عنها.

فهو ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله في بُعد من أبعاده أو في وظيفة من وظائفه البيولوجية أو حتى في كل هذه الوظائف. ولا توجد أعضاء تشريحية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادي لهذا الجانب الروحي في وجود الإنسان وسلوكه، لهذا فهو يشكل ثغرة معرفية كبرى في النسق الطبيعي/ المادي، فهو ليس جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزء يتجزأ منها، يوجد فيها، ويعيش عليها، ويتصل بها، وينفصل عنها. قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات، ولكنه لايُرد في كليته إليها بأية حال، فهو دائماً قادر على تجاوزها، وهو لهذا مركز الكون وسيد المخلوقات. وهو لهذا كله لا يمكن رصده من خلال النماذج المستمدة من العلوم الطبيعية.

وبرغم أن كل إنسان فرد فريد إلا أننا نطرح ما نسميه مفهوم الإنسانية المشتركة (في مقابل الإنسانية الواحدة)، فنحن نذهب إلى أنه لا يمكن إدراك الإنسان في كل تركيبيته إلا من خلال نموذج توليدي، فنرى أن عقله مبدع خلاق، ولذا فهو يتمتع بقدر من الاستقلال عن الطبيعة، ولا يخضع لحتمياتها في بعض جوانب وجوده. وفي هذا الإطار، نذهب إلى أن ادعاء أصحاب النماذج التراكمية الآلية المادية بأن هناك إنسانية واحدة، تُرصد كما تُرصد الظواهر الأخرى، وبأن الناس كيان واحد

وإنسـانية واحـدة خاضـعة لبرنـامج بيولـوجي ووراثـي واحـد عـام، هـو أمـر يتنـافى مـع العقـل ومـع التجربـة الإنسـانية ومـع إحساسـنا بتركيبيتنـا وتنوعنـا الإنسـاني.

أمـا النمـوذج التوليـدي، فهـو ينطلـق مـن الإيمـان بإنسـانية مشـتركة (طبيعـة بشـرية) تأخـذ شـكل إمكانيـة وطاقـة إنسـانية كامنـة لا يمكـن رصـدها أو ردهـا إلـى قـوانين ماديـة. هـذه الطاقـة لا يمكنهـا أن تتحقـق فـي فـرد بعينـه أو شـعب بعينـه أو فـي جـنس بعينـه وإنمـا يتحقـق بعـض منهـا تحـت ظـروف وملابسـات معينـة ومـن خـلال جهـد إنسـاني معـين، ولـذا فـإن مـا يتحقـق لـن يكـون أشـكالاً حضـارية عامـة وإنمـا أشـكالاً حضـارية متنوعـة بتنـوع الظـروف والجهـد الإنسـاني، لأن تحقـق جـزء يعنـي عـدم تحقـق الأجـزاء الأخـرى التـي تحققـت مـن خـلال شـعوب أخـرى، وتحـت ظـروف وملابسـات مختلفـة ومـن خـلال درجـات مـن الجهـد الإنسـاني الـذي يزيـد وينقص مـن شـعب لآخـر ومـن جماعـة لأخـرى.

وممـا يزيـد التنـوع، أن الإنسـان –كمـا أسـلفنا – قـادر علـى إعـادة صـياغة ذاتـه وبيئتـه حسـب وعيـه الحـر، وحسـب مـا يتوصـل إليـه مـن معرفـة مـن خـلال تجاربـه. هـذه الأشـكال الحضـارية تفصـل الإنسـان عـن الطبيعـة/ المـادة، وتؤكـد إنسـانيتنا المشـتركة، فهـي تعبيـر عـن الإمكانيـة الإنسـانية، دون أن تلغـى الخصوصـيات الحضـارية المختلفـة. لكـن الفـرادة لا تعنـي أنـه لا يوجـد أنمـاط تجعـل المعرفـة ممكنـة، والحريـة لا تعنـي أن كـل الأمـور

متساوية نسبية. فالإنسانية المشتركة، تلك الإمكانية الكامنة فينا، هذا العنصر الرباني الذي فطره الله فينا (ودعمه بما أرسله لنا من رسل ورسائل) تشكل معياراً وبُعداً نهائيّاً وكليّاً.

فـــى مقابــل الإنســـان والإنســـانية المشــتركة نضــع الطبيعـــة /المـــادة .ومفهـــوم الطبيعـــة مفهـــوم أساســـى فـــى الفلســـفات الماديـــة التـــى تـــدور فـــى أطـــار المرجعيـــة الكامنـــة ، خصوصـــاً فـــى الغـــرب ، وهـــو تعبيـــر مهـــذب يحـــل محـــل المادة.ولعـــل كثيـــراً مـــن اللغـــط الفلســـفى ينكشـــف إن أســـتخدمنا كلمـــة مـــادى بـــدلاً مـــن كلمـــة طبيعـــى، فبـــدلاً مـــن المـــذهب الطبيعـــى نقول:المـــذهب المـــادى وبـــدلاً مـــن القـــانون الطبيعـــى نقـــول :القـــانون المـــادى وبـــدلاً مـــن الإنســـان الطبيعـــى يمكننـــا أن نقـــول : الإنســـان المادى.فعبـــارة الإنســـان الطبيعـــى عبـــارة مبهمـــة رومانســـية تســـتدعى للأذهـــان طـــرزان، والنبيـــل الوحش،وأبطـــال الأدب الرومانســـى،مع أن الإنســـان الطبيعـــى فـــى واقـــع الامـــر شـــخص يعـــرَّف فـــى أطـــار وظائفـــه الطبيعيـــة البيولوجيـــة ويعـــيش حســـب قـــوانين الحركـــة الماديـــة ويُـــردّ إليهـــا ولـــذل فهـــو فـــى بـــراءى الـــذئاب،وفى تلقائيـــــة الأفعى،وفـــــى حياديـــــة العاصـــــفة،وفى تســـــطح الأشـــــياء وبســـــاطتها.والطبيعة ليســـتهى الأحجـــار والأشـــجار والســـحب والقمر.وإنمـــا هـــى كيـــان يتســـم بـــبعض الصـــفات الأساســـية تشـــكل فـــى مجموعهـــا أســـاس الفلســـفة الماديـــة التـــآ يمكـــن تلخيصـــها فيمـــا يلـــى:

1- الإيمـــان بوحـــدة الطبيعة،فالطبيعـــة شـــاملة لاإنقطـــاع فيهـــا ولا فراغـــات،فهى الكـــل المتصـــل ومـــا عـــداها مجـــرد جـــزء نـــاقص،فهى لا تتحمـــل وجـــــــود أى مســـــــافات أو ثغـــــــرات أو ثنائيـــــــات.

-2الإيمـــان بقانونيـــة الطبيعـــة (لكـــل علـــة ســـبب).والطبيعة شـــىء منـــتظم متسـق مـع نفسـه، فكـل سـبب يـؤدى إلـى االنتيجـة نفسـها فـى كـل زمـان وفـى كـــــــــل مكـــــــــان.

-3الإيمـــان بـــأن الطبيعـــة بأســـرها خاضـــعة لقـــوانين واحـــدة ثابتـــة منتظمـــة صـــارمة حتميـــة مطـــردة وآليـــة، وبأنهـــا كـــذلك رياضـــية واضـــحة،ولذا فهـــى لا تقبـــــــــــــــــــــــــــــل أى خصوصـــــــــــــــــــــــــــــيات.

-4الإيمـــان بـــأن الطبيعـــة تتحـــرك بشـــكل تلقـــائى وبـــأن الحركـــة أمـــر مـــادى.

-5الإيمـــان بـــأن لا يوجـــد غائيـــة فـــى العـــالم المـــادى (حتـــى ولـــو كانـــت غائيـــة إنســـانية تســـحب خصوصـــيات النشـــاط البشـــرى علـــى الطبيعـــة الماديـــة). فالطبيعـــة قـــوة متعينـــة لاتكتـــرث بالخصوصـــية ولا بـــالتفرد او بالظـــاهرة الإنســـانية ولا بالإنســـان الفـــرد أو إتجاهاتـــه أو رغباتـــه.ذلك لأن الإنســـان لا مكانـــة خاصـــة لـــه فـــى الكـــون فهـــو لايختلـــف فـــى تركيبـــه عـــن بقيـــة الكائنات.والإنســان الفــرد او الجــزء يــذوب فــى الكــل ذوبــان الــذرات فيهــا .

-6الإيمـــان بأنـــه لايوجـــد غيبيـــات او تجـــاوز للنظـــام الطبيعـــى مـــن أى نـــوع، فالطبيعـــة تحـــوى داخلهـــا كـــل القـــوانين التـــى تـــتحكم فيهـــا وكـــل مـــا تحتـــاج إليـــه

لتفسيرها ، فهى علة ذاتها، توجد فى ذاتها ،مكتفية بذاتها وتدرك بذاتها ، وهى واجبة الوجود.

والإيمان بالطبيعة/ المادة كسقف للوجود الإنسانى هو المادية.والفلسفة المادية هى المذهب الفلسفى الذى لايقبل سوى المادة بإعتبارها الشرط الوحيد للحياة (الطبيعية والبشرية)، ومن ثم فهى ترفض الإله كشرط من شروط الحياة،كما أنها ترفض الإنسان نفسه إن كان متجاوزاً للنظام الطبيعى/المادى،ولذا فالفلسفة المادية تَرُدّ كل شىء فى العالم (الإنسان والطبيعة) إلى مبدأ مادى واحد وهو القوة الدافعة والسارية فى الأجسام الكامنة فيها والتى تتخلل فى أثنائها وتضبط وجودها.قوة لاتتجزاء ولا يتجاوزها شىء ولا يعلو عليها أحد، وهى النظام الضرورى والكلى للأشياء، نظام ليس فوق الطبيعة وحسب،ولكنه فوق الإنسان أيضاً.وإن دخل عنصر آخر مادى على هذا المبدأ الواحد ، فإن الفلسفة تصبح غير مادية.

وكلمة مادة قد تبدو لأمول وهلة وكأنها كلمة واضحة, ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك.فالشىء المادى هو الشىء الذى كل صفاته ماديه:حجمه،كثافته،كتلته،لونه،سرعته ،صلابته،كمية الشحنة الكهربائية التى يحملها، سرعة دورانه ،درجة حرارته ،مكان الجسم فى الزمان والمكان... إلخ.

فالصفات المادية هى التى يتعامل معها علم الطبيعة (الفيزياء)، فالمادة ليس لها اى سمة من سمات العقل:الغاية ، الوعى، القصد، الرغبة،

الأغـــراض والأهـــداف، الأتجـــاه، الـــذكار، الإرادة، المحاولـــة،الإدراك... إلـــــــخ.

والماديـــة تـــرى أســبقية المــادة علـــى الإنســـان وكـــل نشـــاطاته ، وتمـــنح العقـــل مكانـــة تاليـــة علـــى المـــادة ، ولـــذا فـــإن العقـــل لـــيس لـــه فعاليـــة ســـببية ، ووجـــوده لـــيس ضـــروريًّا لإســـتمرار حركـــة المـــادة فـــى العـــالم. فنظريـــة المعرفـــة الماديـــة (فـــى مراحلهـــا الأولـــى) تقـــر بإمكانيـــة المعرفـــة، فالعـــالم قابـــل لأن يُعـــرَّف، لانـــه معطـــى لإحساســـنا ووعينـــا ، بـــل إن ماديـــة العـــالم هـــى شـــرط لمعرفتـــه . ولمعرفـــة هـــذا العـــالم لا يحتـــاج الإنســـان إلـــى إســـتعارة وســـائل مـــن خـــارج عـــالم الطبيعـــة/ المـــادة. فهنـــاك أولاً حواســـه الخمـــس التـــى ترصـــد المحسوســـات، وهنـــاك عقلـــه الـــذى يرتـــب ويركـــب المحسوســـات ، ولكنـــه لـــيس منفصـــلاً عـــن الوجـــود المـــادى الحســـى، فالمعرفـــة هـــى أنعكـــاس الواقـــع الخـــارجى فـــى دماغنـــا عبـــر أحساســـاتنا، وتـــراكم المعطيـــات الحســـية علـــى صـــفحة العقـــل البيضـــاء.ويمكن للإنســـان أن يكتســـب المزيـــد مـــن المعرفـــة مـــن خـــلال التجريـــب ومراكمـــة المعلومـــات فـــى ذاكرتـــه . وفـــى بعـــض أشـــكال الماديـــة لا توجـــد حـــدود للمعرفـــة، فكـــل مـــا هـــو موجـــود قابـــل لأن يُعـــرف. أمـــا التســـاؤلات الميتافيزيقيـــة فهـــى ليســـت موجـــودة او ليســـت موضـــوعاً للمعرفـــــــــــة.

والمـــادة لا تســـبق العقـــل وحســـب وإنمـــا تســـبق الأخـــلاق كـــذلك ، فـــإن الأخـــلاق تُفسَّـــر تفســـيراً ماديًّـــا ووفقـــاً لقـــانون طبيعـــى. فمنطـــق الحاجـــة

الطبيعة المباشرة هو الذى يتحكم فى الأخلاق الإنسانية تماماً مثلما تتحكم الجاذبية فى سقوط التفاحة.
ولذا تنادى المذاهب الأخلاقية المادية بأن الشىء الوحيد الذى يجد بالإنسان ان يسعى إليه هو الخيرات المادية التى تجود بها الحياة.والشىء نفسه ينطبق على المعايير الجمالية ، فالشعور والأحساس بالجمال وكل الأحاسيس الإنسانية يمكن فهمها بردها إلى المبدأ المادى الواحد، فهى مجرد تعبير عن شىء مادى يوجد فى الواقع المادى. والمادة تسبق التاريخ ، وكذلك فإن كل تطور يتوقف على الظروف المادية والإقتصادية (على سبيل المثال :تطور أدوات الإنتاج وعلاقات الإنتاج والمصحلة الإقتصادية) ونوع الإنتاج فى الحياة المادية شرط تطور الحياة الإجتماعية والسياسية والعقلية على العموم. فالبناء الفوقى (الفكرى والعقلى والنفسى) يُردُّ فى نهاية الأمر وفى التحليل الأخير ، إلى المادة.

ويفرق البعض بين المادية المتطرفة والمادية المعتدلة، وبين المادية السوقية والمادية الجدلية. فالمادية المتطرفة أو السوقية تذهب إلى أن العالم الحقيقى هو مجرد مادة تتغيَّر فى أحوالها وعلاقاتها المادية،وأن كل ما هو إنسانى مجرد حركة للمادة ،أما المادية المعتدلة فتحاول الوصول إلى رؤية أكثر تركيباً، ومع هذا فهى فى نهاية الأمر وفى التحليل الأخير تفترض أسبقية المادة على كل الظواهر التى تُردُّ بعد كل التركيب والتوهيم إلى المبدأ المادى الواحد. والمادية الدياليكتكية

والتاريخيـــة لا تختلـــف فـــى جوهرهـــا عـــن ذلـــك . فالماديـــة الديالكتيكيـــة تصـــدر عـــن الإيمـــان بمفهـــوم المـــادة التـــى تعنـــى الواقـــع الموضـــوعى((المعطى للإنســـان فـــى أحاسيســـه، والـــذى تصـــوره أحاسيســـنا وتعكســـه، ولكـــن وجـــوده غيـــر مرهـــون بهـــا)). أمـــا الـــوعى، فهـــو صـــفة المـــادة الرفعيـــة التنظـــيم، ويظهـــر بظهـــور المجتمـــع. والـــوعى يعكـــس الواقـــع الموضـــوعى ويكـــون صـــورة ذاتيـــه منـــه ، وهـــو مـــا يعنـــى أســـبقية المـــادة علـــى كـــل شـــىء. ويكمـــن لـــب النظريـــة الديالكتيكيـــة فـــى بعـــض القـــوانين العامـــة بحركـــة الطبيعـــة والمجتمـــع والفكـــر وأهمهـــا: تحـــول التغيـــرات الكيفيـــة إلـــى كميـــة وبـــالعكس، ونفـــى النفـــى ، ووحـــــــــــــــدة وصـــــــــــــــراع الأضـــــــــــــــداد.

وهنـــاك جملـــة مـــن القـــوانين التـــى تكمـــل القـــوانين الســـابقة وتجعلهـــا أكثـــر عيانيـــة، وتعبِّـــر عـــن تـــرابط الماهيـــة والظـــاهرة ، والمضـــمون والشـــكل ، والإمكـــان والفعـــل... إلـــخ. وتـــرى الماديـــة الديالكتيكيـــه أن مضـــمون معارفنـــا إنعكـــاس للصـــفات الموضـــوعية للأشـــياء. ولكـــن بلـــوغ الحقيقـــة الموضـــوعية لا يـــتم دفعـــة واحـــدة وبصـــورة مطلقـــة. والقـــوانين العامـــة لتطـــور العـــالم تدرســـها الماديـــة الديالكتيكيـــه تســـرى علـــى كـــل الميـــادين المنفـــردة للنشـــاط الإنســـانى. والماديـــة التاريخيـــة تســـحب الموضـــوعات الأساســـية للماديـــة الديالكتيكيـــة علـــى الظـــواهر الإجتماعيـــة والتاريخيـــة، ولـــذا فـــإن الماديـــة التاريخيـــة تـــذهب إلـــى أن الإنســـان يظهـــر نتيجـــةً لعمليـــة ماديـــه حركيـــه تفتـــرض أســـبقية المـــادة علـــى الفكـــر، فحيـــاة الإنســـان تتطلـــب المأكـــل والمشـــرب والمســـكن والملـــبس، وهـــى أشـــياء لا يجـــدها جـــاهزة فـــى الطبيعـــة فيضـــطر

إلـــى أنتاجهـــا. وحـــين ينـــتج البشـــر الأشـــياء الضـــرورية فـــإنهم يمارســـون لونـــاً خاصّـــاً مـــن نمـــو الحيـــاة ،ويـــدخلون فـــى علاقـــات فيمـــا بيـــنهم . وفـــى مجـــرى إنتـــاج الخيـــرات الماديـــة، يتكـــون الإنســـان ذاتـــه بوعيـــه ونظراتـــه وتطلعاتـــه. وبـــذلك يشـــكل الإنتـــاج المـــادى الأســـاس (اللوجـــوس أو المطلـــق(الـــذى يحـــدد ،فـــى نهايـــة المطـــاف وفـــى التحليـــل الأخيـــر، نمـــط حيـــاة النـــاس ووعـــيهم وفكـــرهم وحيـــاتهم الروحيـــة، بـــل والحيـــاة الإجتماعيـــة بأســـرها. وفـــى تصـــورنا أن كـــل الماديـــات مهمـــا بلغـــت مـــن صـــقل وجدليـــة واعتـــدال ، ماديـــات متطرفـــة إن كانـــت متســـقة مـــع نفســـها ومـــع مقـــدماتها المعرفيـــة، إذ يظـــل جـــوهر الأشـــياء ماديًّـــا ، ومـــا عـــدا ذلـــك فتحـــولات عرضـــية ويظـــل مركـــز الكـــون كامنـــاً فيـــه (المرجعيـــة الكامنـــة) ومـــن ثـــم العـــالم المـــادى.

وأى نمـــوذج فكـــرى، مهمـــا بلـــغ مـــن مثاليـــة أو غيبيـــة، لابـــد أن يتبنـــى نموذجـــاً تفســـيريًّا ماديًّـــا حـــين يتعامـــل مـــع بعـــض الظـــواهر ، فـــالواقع مركـــب والعناصـــر الماديـــة مكـــون أساســـى فيـــه. وقـــد حققـــت الماديـــة نجااحاتهـــا فـــى العصـــر الحـــديث لأن النمـــوذج المـــادى عنـــده مقـــدرة تفســـيرية هائلـــة إن نظرنـــا إلـــى الجانـــب المـــادى فـــى حيـــاة الإنســـان.ولكننا لـــو نظرنـــا فـــى الجوانـــب غيـــر الماديـــة (الأخلاقيـــة والجماليـــة والروحيـــة)، فـــإن مقدرتـــه التفســـيرية تضـــعف وتكـــاد تنعـــدم ، وتكمـــن الهرطقـــة الماديـــة فـــى أن الفلســـفة الماديـــة لا تكتفـــى بتفســـير بعـــض جوانـــب الواقـــع وإنمـــا تصـــر علـــى تفســـير كـــل الواقـــع بمـــا فـــى ذلـــك الإنســـان فـــى كـــل جوانـــب وجـــوده، مـــن خـــلال مجموعـــة موحـــده مـــن المقـــولات التفســـيرية مســـتمدة مـــن وجودنـــا المـــادى اليـــومى، ثـــم تَـــرُد الواقـــع

الطبيعــي والإنســاني إلــى مبــدأ نهــائى واحــد دون الحاجــة إلــى إدخــال مجموعــة أخــرى مــن المقــولات غيــر الماديــة المختلفــة عــن الأولــى وهــو مايبسط الواقع ويختزله.

وتعـــود جاذبيــــة الفلســــفات الماديـــــة للســــببين التـــــاليين:

-1المســـــــــــــــتوى المعرفـــــــــــــي(الإبســـــــــــــــتمولوجي(

يمكننـــا أن نقـــول : أن التفســـير المـــادي للظـــواهر ســـهل ، فـــيمكن الحصـــول بشـــكل ســـريع علـــى المعلومـــات عـــن العـــالم المـــادي وقياســـها ، والتـــرابط المـــادي بـــين الظـــواهر أمـــر يمكـــن رصـــده بشـــكل موضـــوعي محســـوس ، وحركـــــــــــــة المـــــــــــــادة نتيجتهـــــــــــــا مباشـــــــــــــرة. وتجربـــة الطفـــل مـــع جســـده ، وهـــو أول شـــيء يدركـــه ، يشـــجع علـــى التفســـيرات الماديـــة .بـــل أن عاطفتـــه تجـــاه أمـــه تأخـــذ فـــي بـــدايتها شـــكلاً ماديًّـــا فـــي علاقتـــه مـــع بثـــديها ،فحبهـــا لـــه يأخـــذ شـــكل إطعامـــه . وهكـــذا ، فـــإن التفســـيرات الماديـــة راســـخة فـــي التجـــارب الأولـــى للإنســـان بعـــد خروجـــه مـــن الـــرحم ، ولـــذا فهـــو يجـــد راحـــة غيـــر عاديـــة فيهـــا إذ لا يضـــطر إلـــى التجريـــد والتجـــاوز إذ لا مســـاحات ولا ثنائيـــات . أمـــا العناصـــر غيـــر الماديـــة فـــي الواقـــع (مثـــل : العقـــل , الخيـــال ، الســـببية غيـــر المباشـــرة ، الظـــواهر التـــي لا يمكـــن رصـــدها بشـــكٍل متـــواتر ، العواطـــف التـــي لا تـــرتبط بالجســـد بشـــكل مباشـــر) ، فـــإن اكتشـــافها بتطلـــب إعمـــال العقـــل والتجريـــد ، وهـــو أمـــر صـــــعب علــــــى الكثيــــــر مــــــن البشــــــر.

-2المســـــــــــــــتوى النفســـــــــــــي (الســـــــــــــيكولوجي(

تحول الفلسفات المادية الإنسان إلى جزء من كلٍّ اكبر ، فلا يوجد له هوية أو حدود أو إرادة عم هذا الكل المادي الذي تُرد إليه . وهذا يعنى إنكار الهوية الفردية المستقلة والمسؤولية الخلقية و الاختيار الحر . والواقع أن الامتزاج الكامل بالطبيعة/ المادة هو شكل من أشكال فقدان الوعي والهوية والحدود وهو ما نسميه النزعة الرحمية (و انتصار الموضوع على الذات) ، وهذا هو الإغراء الأساسي الذي يجابه كل البشر ويتهدد إنسانيتهم ، وهو جوهر كل الهرطقات المعادية للإله والإنسان ، ابتداءً بالهرطقة الغنوصية وانتهاءً إلى الهرطقات الحديثة (مثل النزعة الطبيعية.(

***ولكن الفلسفة المادية برغم إغرائها ، تواجه عدة مشاكل:**

-1تدعى الفلسفة المادية أنها ليست أيديولوجية وإنما علم طبيعي ، وهذا يفترض أن الفلسفة المادية قد قامت بحصر كل المتغَّيرات المادية والموضوعية ورصدها في علاقاتها المتشعبة وأثبتت صحة مقولاتها. وهو أمر مستحيل علميًّا.

كما أن الواجب العلمي يتطلب ، بعد حصر كل المتغيرات والعناصر والأسباب وعلاقتها بعضها ببعض، إقرار غلبة عنصر ما على العناصر

الأخــرى وإعطــاءه أســبقية ســببية ،علــى أن تــتم هــذه العمليــة كــل مــرة ، وهــذا أمــر مســتحيل مــن الناحيــة العلميــة .ولــذا فــإن مــا يحــدث فــي واقــع الأمــر ، هــو أن الفلســفة الماديــة تواجــه الواقــع مســلحة بميتافيزيقــا ماديــة غيــر واعيــة ، فهـــي واعيـــة أو تـــؤمن بوجـــود كليـــات وتعميمـــات تســـتند إلـــى الإيمـــان بوجــود كــل مــادي ثابــت متجــاوز للأجــزاء لــه هــدف وغايــة ، وبوجــود عقــل إنســـاني قـــادر علـــى رصـــد كـــل هـــذا. وهـــى أطروحـــات نبيلـــة،ولكنها ميتافيزيقيـــة. فالثبـــات والتجـــاوز والهـــدف لـــيس مـــن صـــفات المـــادة ، ومقــدرات العقــل علــى التعمــيم والتجــاوز مــن الصــعب تفســيرها ماديًــا. وهــذا مــا أدركــه نيتشــه مــن البدايــة، حــين بَّــين ان الأنطولوجيــا الغربيــة، حتــى بعــد مــوت الإلــه ، أي بعــد ظهــور العقلانيــة الماديــة، احتفظــت بظــلال الإلــه علــى هيئــة هــذا الإيمــان بالكــل المــادي الثابــت المتجــاوز ذي الهــدف، وحــين نـــادى بإزالـــة ظـــلال الإلـــه تمامـــاً والتخلـــي عـــن الميتافيزيقـــا ، التـــي تعنـــي التخلـــي عـــن البحـــث عـــن الحقيقـــة ذاتهـــا ، فالحقيقـــة تســـتدعى الثبـــات والكليـــة ، وعالمـــاً متجـــاوزاً لعالمنـــا المـــادي، عـــالم الصـــيرورة الماديـــة الدائمـــة والحلـــول والكمـــون الكامـــل. وبعـــد أن انطلقـــت الفلســـفات الماديـــة مـــن إيمانهـــا الراســـخ هـــذا ، فإنهـــا تعطـــي أولويـــة ســـببية للعناصـــر الماديـــة (قـــوانين الحركـــة). وفـــى حالـــة الإنســـان ، تتـــرجم الســـببية الماديـــة الصـــلبة المطلقـــة نفســـها إلـــي تفســـير ظـــاهرة الإنســـان فـــي أطـــار عنصـــر مـــادي واحـــد (مـــاركس والعنصـــر الاقتصـــادي، فوريـــد والعنصـــر الجنســـي ... إلـــخ). وغنـــى عـــن القـــول أن مـــن يقـــوم بالتجريـــب والرصـــد ، فـــي الإطـــار المـــادي، لا يعيـــد

اختبـــار مقولاتـــه كـــل مـــرة . ولـــذا فهـــو يفتـــرض صـــدقها بشـــكل دائـــم وممـــا يجدر ذكره أن الحقيقة العملية تقريبية.

2- العلـم التجريبـي محـدود ولا يسـتطيع أن يتعامـل مـع كـل أنـواع الخبـرات وجوانبهـا، والطريقـة التجريبيـة ذاتهـا تقريبيـة، وهـي نتـائج تنطبـق فـي المتوسـط أي علـى المجموعـات الكبيـرة ، ولـيس علـى كـل مفـردة بـذاتها.

3- ظهـر الفكـر المـادي فـي أحضـان الرؤيـة النيوتنيـة للكـون، وعـالم نيـوتن عـالم محكـم مغلـق يتسـم بالحتميـة الميكانيكيـة. وتفسـير العـالم ، حسـب نيـوتن ، يسـتند إلـى مـا يلـي: آليـات الوجـود الفيزيـائي للـذرة (الجزئـي) وقـوانين الحركـة. وانطلاقـاً مـن هـذا ، ظهـرت الرؤيـة العلميـة الماديـة التـي نـادت بأنـه لا يمكـن الحـديث عـن تـأملات خـارج معامـل البحـث ونتـائج التجريـب . وقـد ظلـت هـذه الرؤيـة مسـيطرة تمامـاً حتـى نهايـة القـرن التاسـع عشـر . ومنـذ ذلـك ، بـدأت الضـربات توجـه إلـى هـذا النظـام المغلـق والسـببية الصـلبة. وأدَّت نظريـة الكـم (الكوانتـام) و لا تحـدد هـايزنبرج ونظريـة النسـبية إلـى إضـعاف قيمـة الافتراضـات الماديـة مثـل: الجبريـة والسـببية ، و مطلقيـة كـون الفضـاء والزمـان ...إلـخ، وقـد ظهـر أن ثمـة وجـوداً لا ماديـاً للطاقـة الذريـة هـو الوجـود المـوجي. والتعامـل مـع ظـاهرة الضـوء أثبـت أن الضـوء يتصـرف فـي مواضـع تجريبيـة باعتبـاره مكونـاً مـن جزيئـات وحـزم ضـوئية (فوتونـات) ، وأنـه فـي مواضـع تجريبيـة أخـرى يتصـرف باعتبـاره مكونـاً مـن موجـات) و قـد قـال أحـد علمـاء الطبيعـة متهكمـاً: فـي يـوم السـبت و الاثنـين والأربعـاء نُعـرَّف الضـوء بأنـه جزئيـات ، ثـم يصـبح موجـات بقيـة الأسـبوع. (وقـد أوصـلتنا النتـائج التجريبيـة إلـى

صيغة رياضية لما هو مادي بحت في المادة ، وما هو في الوقت ذاته فوق مادي في المادة نفسها (وهو ما يُطلق عليه معادلة دي بروجلي). وهذا ما يعني ببساطة أن لكل كيان مادي موجة مصاحبة له ، وأن تلك الموجة تزيد كلما صغرت كتلة ذلك الكيان ، وهي تظهر بوضوح في الأبعاد المجهرية من ذلك العالم ، أي أن اللامادي موجود في قلب المادي.

وقد أسقط العلم الحديث تدريجيًّا فكرة السببية الصلبة القديمة ، ولم يعد يطمح إلى معرفة الكون معرفة كاملة كما كان يطمح علماء القرن التاسع عشر.فبعد مئة عام من التجارب العلمية ، أكتشف الإنسان أنه كلما اكتشف وسيطر على شيء ما ظهرت له آلاف الأشياء الجديدة التى لايعرفها ، ولايمكنه السيطرة عليها ، من ذلك تجربتنا مع الذرة ، هذا الشيء الذى يتحرك دون قانون والذى يصعب رصده ، وكلما رصدناه اكتشفنا عناصر جديده فيه تحيرنا، ثم حطمناه لنؤسس الفردوس الأرضى ، وانتهى بنا الأمر إلى أنه قد يدمرنا وكرتنا الأرضية تماماً وها نحن نمسك بكرة اللهب ، أى العادم النووى والأسلحة النووية التى يمكنها تدمير العالم عشرات المرات، وكأننا بروميثيوس أبله سرق النار من الآلهة ولا يعرف ماذا يفعل بها بعد ذلك ، وبدلاً من الاستفادة من النار فإنها تحرق أصابعه. وقد اكتشفنا مؤخراً أيضاً حدود الحاسوب (الكومبيوتر) وأنه لن يأتي لأحد بالخلاص ، بل أننا بدأنا

نكتشف مخاطره على عقل الأطفال الذين يستخدمونه وعلى عيون من يقضون سحابة (أو سواد) يومهم يتطلعون إلى شاشته . ويقال الشيء نفسه بالنسبة إلى الهندسة الوراثية، فكثير من العلماء (من الذين حققوا أكتشافات فى هذا المجال) يقفون ضد إجراء التجارب العلمية خوفاً من عواقبها الوخيمة. قد قال أحدهم : أن الأخطاء فى التجارب العلمية فى الماضى، كأن يحدث أنفجار أو ما شابخ ،كانت تتم داخل دورة الطبيعه لا تتحدى قوانينها ، ولهاذ يمكن أن تترك بضع سنوات لتقوم العوامل الطبيعيه بإصلاح ما أفسدت يد الإنسان . بل إن التلوث الإشعاعى قد يستمر لمدة 520 ألف سنة، ولكنه مع هذا يظل داخل الزمان ودورة الطبيعة. أما التجارب فى الهندسة الوراثية فهى قد تأتى بمخلوقات لا يمكن لدورة الطبيعة أن تتعامل معها، فهى مخلوقات تقع خارج نطاق حلقة التطور الطبيعية.

ولعـل اكتشـاف الثقـوب) الثغـرات (السـوداء فـي الكـون لـه دلالـة علميـة ورمزيـة فـي الوقـت ذاتـه. فـداخل هـذه الثقـوب تـتحطم قـوانين علـم الطبيعـة والأحيـاء ويـتحطم الزمـان والمكـان ويـتم التهـام الضـوء (العنصـر الثابـت فـي الطبيعـة). والثقـوب السـوداء يمكننـا أن نـرى أثرهـا علـى مـا حولهـا ، ولكننـا لا نعـرف كنههـا تمامـاً فهـي موجـودة و أساسـية لا يمكـن تفسـير الظـواهر دونهـا ، ولكنهـا مـع هـذا غيـر خاضـعة للـتحكم الإنسـاني ولا نفهـم كنههـا تمامـاً . وقـد ظهـرت مـؤخراً نظريـة الفوضـى (كيـوس (chaosوهـى ضـربة أخـرى للعـالم المـادي المغلـق المصـمت.

إن السـببية الصـلبة المطلقـة التـي لا يـزال يتمسـك بهـا بعـض علمـاء الإنسـانيات فـي القـرن العشـرين ، خصوصـاً فـي عالمنـا العربـي ، لـم يعـد لهـا سـند علمـي، فهـي نتـاج علـم القـرن التاسـع عشـر ، الـذي أكتشـف الجميـع كبريـاءه السـاذج وإدعـاءه الأجـوف بـأن مـا هـو غيـر معـروف سـيتم معرفتـه ، وأنـه فـي خـلال ثلاثـين عامـاً- كمـا قـال أحـد العلمـاء آنـذاك –سـيعرف الإنسـان كـل شـيء .ولكـن الإلـه سـتر وحمـى الإنسـان مـن الاختفـاء (كمـا يبشـر الفلاسـفة المـاديون مـن البنيـويين وفلاسـفة مـا بعـد الحداثـة.(

4–أدعـت الفلسـفة الماديـة ، فـي البدايـة، أن المـادي هـو مـا تدركـه الحـواس، وأن مـا لا تدركـه غيـر مـادي وبالتـالي غيـر موجـود ولكـن الـذرات وجزيئاتهـا لا تُـدرَك بـالحواس ، وبعضـها لا كتلـة لـه ، وحركـة الـذرة لا تتبـع نمطـاً محـدداً ، والثقـوب السـوداء تحطـم قـوانين الزمـان والمكـان . ومـن

ثـــم، أعيـــد تعريـــف المـــادي بأنـــه كـــل شـــيء يوجـــد وجـــوداً موضـــوعياً ، أي إنـــه الشـــيء الـــذي لا يعتمـــد فـــي وجـــوده علـــى عقلنـــا أو وعينـــا بـــه (وبهـــذا المعنـــى ، فـــإن الفلســـفة الماديـــة لا يمكنهـــا أن تســـتبعد العناصـــر الغيـــر ماديـــة إن تجلـــت موضـــوعياً فـــي واقعنـــا(، وهـــو مـــا يعـــود بنـــا إلـــى نقطـــة البدايـــة.

5- مســـألة أزليـــة المـــادة أصـــبحت مســـألة مشـــكوكاً فيهـــا علميًّـــا . فالمـــادة تتحـــول إلـــى طاقـــة والطاقـــة تتحـــول إلـــى مـــادة . وقابليتهـــا للتحـــول تعنـــى أن بقاءهـــا فـــي هيئتهـــا المعَّينـــة كـــان معتمـــداً علـــى ظـــروف خارجـــة عـــن ذاتهـــا ، فلمـــا زالـــت تلـــك الظـــروف زالـــت تلـــك الهيئـــة.إذن ، فهـــي ليســـت معتمـــدة فـــي وجودهـــا علـــى نفســـها ومـــن ثـــم تســـتحيل أن تكـــون آليـــة. وكـــل مـــا يتحلـــل ويتحـــول فلـــيس بـــأزلي غيـــر حـــادث بـــل هـــو بالضـــرورة حـــادث .فمـــا المـــادة الأزليـــة إذن؟ أنهـــا المـــادة التـــي لا خصـــائص لهـــا ولا صـــفات .وهـــى مـــادة لا توجـــد إلا فـــي الأذهـــان ، فهـــي مقولـــة فلســـفية يـــرى أصـــحابها أن لهـــا مقـــدرة تفســـــيرية عاليـــــة.

6- خلـــق العـــالم بالصـــدفة هـــو مجـــرد افتـــراض وتخمـــين ولـــيس حقيقـــة علميـــة. ومـــن الاعتراضـــات المعروفـــة علـــى هـــذا الـــرأي أن تكـــوين كـــائن كالإنســـان مـــن تلـــك الـــذرات بالمصـــادفة أكثـــر بُعـــداً مـــن احتمـــال قـــرد يخـــبط علـــى آلـــة كاتبـــة فيخـــرج لنـــا بالمصـــادفة قصـــيدة رائعـــة. ولكـــي نصـــدق نظريـــة الخلـــق بالمصـــادفة ، لابـــد أن نـــؤمن باحتمـــال أن يلقـــى إنســـان (أو قـــرد) بـــالنرد ويحالفـــه الحـــظ ويـــأتي 6/6 لـــيس مـــرة واحـــدة ولا ألـــف وإنمـــا

ألف مرة متتالية .كما أن المصادفة وحدها لا تجدي في تفسير الخلق ، فإن تكوين الكائنات من تلك الذرات الهائمة يعنى أنها كانت مصممة بحيث أنها إذا اجتمعت بهذه الطريقة تكون منها ذهب ، وإذا اجتمعت بتلك الطريقة يتكون منها ماء ، وهكذا. أي أن التصميم يسبق الصدفة.

ويقــول علــى عــزت بيجــوفيتش : أن تشــارلز يــوجين جــاى ، عــالم الطبيعــة السويســري ، قـــد حـــاول أن يقـــوم بحســـاب احتماليـــة الحلـــق بالصــدفة لُجــزيء واحــد مــن البــروتين ، فوجــد أن خلــق مثــل هــذا الجــزء قــد يســتغرق 34201 بليــون ســنة تحــت ظــروف 41015 اهتــزازة فــي الثانيــة . وتبعــاً لــذلك ، لا يوجــد إمكانيــة لأن تكــون الحيــاة قــد نشــأت بالصــدفة خــلال 4.5 بليـــون ســـنة التـــي يُفتـــرض أنهـــا عمـــر الأرض.

وقــد أعــاد هــذا الحســاب مانفريــد إيجــن مــن معهــد مــاكس بلانــك لكيميــاء الطبيعــة الحيويــة فــي جــوتنجن بألمانيــا ، فأثبــت أن جميــع الميــاه علــى كوكبنــا ليســت كافيــة لكــي تنــتج بطريــق الصــدفة جُزيئــاً بروتينّــا واحــداً، حتــى ولــو كــان الكــون كلــه مليئــاً بمــواد كيميائيــة تتحــد بعضــها مــع بعــض بصــفة دائمــة. فــإن البلايــين العشــرة مــن الســنين منــذ نشــأة الكــون لــم تكــن كافيــة لإنتـــــاج أي نـــــوع مـــــن البـــــروتين.

وقــال العــالم الروســي بلانــدين)) : لــو أن مليــون معمــل علــى الأرض عملــت لبضــعة ملايــين مــن الســنين فــي تركيــب العناصــر الكيميائيــة ، فــإن احتمــال خلــق حيــاة فــي أنبوبــة اختبــار ســتكون شــيئاً نــادراً . وطبقــاً لحســاب هولــدن ، فــإن الفرصــة هــي 1310. هــذا هــو الأمــر بالنســبة إلــى التنظــيم الــذاتي لجُــزيء واحــد مــن البــروتين الــذي إذا قــورن بكــائن حــي فإنــه يشــبه طوبــة فــي مواجهــة مبنــى كامــل . إن العلــم – وخصوصــاً بيولوجيــا الجُزيئــات – قــد أســتطاع أن يضــيق الثغــرة الهائلــة بــين الحيــاة والمــادة الميتــة ، ولكــن

الثغرة الصغيرة بقيت مستحيلة العبور . ولا شك في أن الأستحفاف بهذه الثغرة يعدُّ خطأً علميًّا . ومع ذلك ، فهذا هو الموقف الرسمي للمادية.((

وكيف يمكن تفسير التباين الظاهري التالي: إذا وجدنا في اكتشاف أثري حجرين موضوعين في نظام معين (أو قُطِعا لغرض معين) ، فإننا جميعاً نستنتج بالتأكيد أن هذا من عمل إنسان في الزمان القديم ،فإذا وجدنا بالقرب من الحجر جمجمة بشرية أكثر كمالاً وأكثر تعقيداً من الحجر بدرجة لا تُقارن فإن بعضاً منا لن يفكر في أنها من صنع كائن واعٍ، بل ينظرون إلى هذه الجمجمة الكاملة أو الهيكل الكامل كأنهما قد نشأ بذاتهما او بالصدفة– هكذا من دون تدخل عقل أو وعى .أليس في إنكار الإنسان لله هوى بيِّن ؟

أما هؤلاء الذين يرون أن المادة (من خلال الصدفة وحدها) قد أدَّت إلى ظهور عناصر متجاوزه للمادة مثل الإنسان والوعي والعقل والغائية، فهم في نهاية الأمر ، ينسبون للمادة مقدرات غير مادية ، ومن ثم فإنهم يكونون قد خرجوا من مقاصد الفلسفة المادية، خصوصاً وأن فرضياتهم لا تخرج عن كونها تكهنات عنيدة طفولية تضمن لهم الاستمرار في ماديتهم وتضمن لهم في الوقت ذاته تفسير ما حولهم من تركيب ووعى وغائية (ولعل هذا هو احد أشكال محاولة الإنسان

العلمـــاني الوصـــول إلـــى ميتافيزيقـــا دون أعبـــاء أخلاقية،فالإصـــرار علـــى أسطورة الأصل المادي هو الذي يحميهم من المسؤولية الأخلاقية!)

7-لكن التحدي الأكبر للفلسفة المادية هو ظاهرة الإنسان بكل ما فيها من أسرار وتركيبية، والتي أخفق العلم الطبيعي تماماً في إدخالها في قفص السببية الصلبة المطلقة الحديدي.

وفي إطار الطبيعة /المادة ظهر ما يمكن تسميته بالإنسان الطبيعي أو الإنسان الطبيعي/ المادي . وهو إنسان لا توجد مسافة تفصله عن الطبيعة ، فهو جزء عضوي لا يتجزأ منها ، لا يمكنه تجاوزها ، فضاؤه فضاؤها ، وسقفها هو سقفه، وهذا يعني أنه يخضع تماماً لقوانينها ، تحرَّكه أينما شاءت ، لا يمكنه الفكاك من حتمياتها. ويمكن تفسيره في أطار مقولات طبيعية /مادية مستمدة من عالم الطبيعة /المادة :وظائفه البيولوجية (الهضم، التناسل، اللذة الحسية) ودوافعه الغريزية المادية(الرغبة في اللقاء المادي، القوة والضعف، الرغبة في الثروة) والمثيرات العصبية المباشرة(بيئته المادية ، غدده ، جهازه الهضمي) فهو تعبير حقيقي عن الطبيعة / المادة، ، جوهره ليس جوهراً إنسانياً وإنما جوهر طبيعي/مادي، فهو لا يختلف بشكل جوهري عن الكائنات الطبيعية الأخرى.

ونحن نضع في المقابل الإنسان الطبيعي الإنسان الإنسان ، وهو إنسان غير طبيعي/ مادي يحوى داخله عناصر (ربانية) متجاوزة لقوانين الحركة (التي تسرى على الإنسان والحيوان) ومتجاوزة للنظام الطبيعي/

المــادي   . هــذه العناصــر هــي التــي تشــكل جــوهر الإنســان والســمة الأساسية لإنسانيته وتفصله عن بقية الكائنات وتميَّزه بوصفه إنساناً.

-*المادية القديمة والمادية الجديدة

يمكننا التمييز بين نوعين من المادية يرتبطان بمرحلتين تاريخيتين مختلفتين:

المادية القديمة والمادية الجديدة. والمادية القديمة هي المادية التي تستند إلى العقلانية المادية ، أي الإيمان بأن العالم ((يحوى داخله ما يكفى لتفسيره دون الحاجة إلى وحى أو غيب))، وهذه العبارة تعنى ما يلي:

1- أن العقل مستقل بذاته ، قادر على التفاعل مع الطبيعة (والواقع الموضوعي) بشكل فعال ، وعلى الوصول إلى القوانين الكامنة في المادة وتجريدها على هيئة قوانين عامة، وأنه يمكنه ، انطلاقا من ذلك ، أن يطور منظومات معرفية وأخلاقية ودلالية وجمالية تهديه في حياته، ويمكنه على أساسها أن يفهم الماضي والحاضر والمستقبل وأن يُرشِّد حاضره وواقعه.

2- أن الواقع الموضوعي يحوى داخله قوانينه التي يمكن للعقل استيعابها، وهذا الواقع بالتالي ليس مجرد أجزاء غير مترابطة ، وليس مجرد حركة عشوائية, وإنما هو كل متماسك مترابطة أجزاؤه برباط السببية الصلبة، بل والمطلقة، والعقل حينما يدرك الواقع فإنه يدرك هذا الكل المتماسك الثابت المتجاوز للأجزاء المتغيرة، ويدرك أن حركة الأجزاء ليست حركة عشوائية، وإنما هي تعبير عن الكل الثابت المتجاوز، ولذا فعي حركة لها معنى وهدف ، ولها معياريتها ومعقوليتها ،

فمـــا يحـــدث حســـب قـــانون ولـــيس بالصـــدفة.

–والعقلانيـــة الماديـــة تســـتند إلـــى افتراضـــين فلســـفيين أساســـيين:

–1العقـــل القـــادر علـــى إدراك الكليـــات.

–2الكـــل المـــادي الثابـــت المتماســـك المتجـــاوز ذو الغـــرض.

فالرؤيـــة العقلانيـــة الماديـــة تســـتند إلـــى افتـــراض وجـــود عقـــل مســـتقل قـــادر علـــى إدراك مـــا نســـميه الكـــل المـــادي الثابـــت المتجـــاوز ذا الهـــدف. فلـــو أن العقـــل قـــادر علـــى الإدراك بمفـــرده ، دون أن يكـــون هنـــاك كليـــات فـــي الواقـــع ، لأدرك جزئيـــات ولمـــا أمكنـــه أن يؤســـس منظومـــات معرفيـــة وأخلاقيـــة عقلانيـــة. والعكـــس صـــحيح أيضـــاً، فلـــو أن الواقـــع هـــو هـــذا الكـــل المـــادي الثابـــت المتجـــاوز ذي الغـــرض ولا يوجـــد عقـــل يدركـــه ، فإنـــه لا يمكـــن أن تنشـــأ منظومـــات معرفيـــة وأخلاقيـــة عقلانيـــة بمفردهـــا.

ولكـــن ظهـــر داخـــل المنظومـــة الماديـــة ذاتهـــا مـــن وجَّـــه ســـهام نقـــده لهـــذه الماديـــة باعتبارهـــا ميتافيزيقـــا ماديـــة أو إنســـانية ميتافيزيقيـــة أو حتـــى مثاليـــة ماديـــة. فهـــم يقولـــون : مـــا معنـــى هـــذا العقـــل الكلـــي القـــادر علـــى إدراك الكليـــات؟ مـــا الفـــرق بـــين العقـــل والـــدماغ؟ ألـــيس العقـــل هـــو مجموعـــة مـــن الخلايـــا الماديـــة شـــأنه شـــأن كـــل مـــا هـــو مـــادي؟ لمـــاذا يُنســـب للعقـــل المقـــدرة علـــى تجـــاوز الأجـــزاء والإفـــلات مـــن قبضـــة الصـــيرورة؟ ألـــيس هـــو ذاتـــه جـــزءاً مـــن المـــادة المتغيـــرة ومـــا ينطبـــع عليـــه هـــو أحاســـيس ماديـــة متغيـــرة وليســـت

ظـــواهر مترابطـــة متماســـكة لهـــا معنـــى؟ ولـــذا فهـــم يجـــدون أن المـــادة المتحركـــة المتغيـــرة محايـــدة لا تتســـم بـــالخير أو بالشـــر ولا بـــالقبح أو الجمـــال. والمنظومـــات المعرفيـــة والأخلاقيـــة والجماليـــة التـــي تـــدعي الماديـــة، لـــيس لهـــا أي أســـاس مـــادي ، فهـــي مـــن إفـــراز عقـــل إنســـاني يبحـــث عـــن الطمأنينـــة ويـــود أن يطبـــع الثبـــات علـــى الواقـــع.

إن ثنائيـــة الإنســـان والطبيعـــة (وكـــل الثنائيـــات الأخـــرى) داخـــل الإطـــار المـــادي هـــي تعبيـــر عـــن ميتافيزيقـــا التجـــاوز مـــن خـــلال المـــادة ،أو ميتافيزيقـــا التجـــاوز التـــي تـــدعي الماديـــة ، وهـــى ليســـت مـــن الماديـــة فـــي شـــيء . والكـــل المـــادي الثابـــت المتماســـك المتجـــاوز ذو الغـــرض هـــو أيضـــاً وهـــم مـــادي ، فكيـــف يمكـــن للكـــل أن يكـــون ماديـــاً والمـــادة أجـــزاء، وكيـــف يمكـــن أن يكـــون ثابتـــاً والمـــادة فـــي حالـــة حركـــة وصـــيرورة، وكيـــف يمكـــن أن يكـــون متجـــاوزاً والمـــادة لا تعـــرف التجـــاوز ،وكيـــف يمكـــن أن يكـــون ذا غـــرض خاضـــع لســـببية صـــلبة ، والمـــادة حركـــة بـــلا هـــدف ولا غايـــة؟ إن العقلانيـــة الماديـــة فـــي تصـــورهم هـــي شـــكل مـــن أشـــكال المرجعيـــة المتجـــاوزة الماديـــة، وهـــذا تنـــاقض كامـــل .بـــل إن أي حـــديث عـــن تجـــاوز وثبـــات هـــو ســـقوط فـــي ميتافيزيقـــا التجـــاوز بـــرغم الماديـــة المعلنـــة. بـــل هـــي إشـــارة للأصـــل الإلهـــي للكـــون، إذ لا يمكـــن أن يكـــون هنـــاك تجـــاوز للصـــيرورة إلا بالاســـتناد إلـــى نقطـــة خـــارج الصـــيرورة، خـــارج النظـــام الطبيعـــي، أي إن الميتافيزيقـــا الماديـــة تسقط لتصبح ميتافيزيقا إيمانية شاءت أم أبت.

ولـذا , يصـر هـؤلاء المـاديون الجـدد (أصـحاب مـا نسـميه مـذهب الماديـة الجديـدة) علـى ضـرورة الإبتعـاد عـن أي تجـاوز أو أثبـات و الخضـوع التـام للماديـة الحقيقيـة , أي للصـيرورة.هذا الخضـوع يعنـي إلغـاء الثنائيـات و كـل الحـدود و الكليـات و الثوابـت والسـببية و أي شـكل مـن أشـكال الصـلابة , و هـو يعنـي أيضـاً إنكـار الأصـل الإلهـي , علـى أن يقبـى الإنسـان فـي قبضـة الصـيرورة و يصـبح مركـز العـالم (كامنـاً فيـه تمامـاً) لا يتمتـع بـأي تجـاوز ومـن ثـم هـو لـيس بمركـز , و إلغـاء المركـز يعنـي إلغـاء الثنائيـات: ثنائيـة الـذات و الموضـوع , و الـدال و المـدلول , والشـكل و المضـمون و الخيـر و الشـر , و الوسـائل و الغايـات , و الإنسـان و الطبيعـة , و المقـدَّس والمـدَّنس , و الأزلـي والزمنـي , ولا يبقـى سـوى المـادة المتغيـرة المتحركـة التـي لا هـي كليـة و لا ثابتـة و لا متجـاوزة و لا اتجـاه لهـا ولا معنـى.

و فـي إطـار الماديـة القديمـة ,كـان ثمـة بحـث دائـب عـن نظـم معرفيـة وأخلاقيـة تسـتند الـى أسـاس مـادي راسـخ (تمامـاَ مثـل الميتافيزيقيـا الإيمانيـة التـي تسـتند الـى أسـاس غيـر مـادي راسـخ) , وأمـا الماديـة الجديـدة فهـي تـرفض تمامـاً فكـرة الأسـاس , ففكـرة الأسـاس ذاتهـا هـي جـوهر الميتافيزيقيـا , و المطلـوب الآن هـو الارتبـاط بالصـيرورة ورفـض الأسـاس , و التطهـر تمامـاً مـن أي أثـر للميتافيزيقـا ,و لكـن رفـض الأسـاس لابـد أن يكـون جـذرياً ,لـذا لا يضـع المـاديون الجـدد الوجـود فـي مقابـل العـدم و المطلـق فـي مقابـل النسـبي ثـم يثبتـون النسـبية العدميـة , بـل إنهـم

يحــاولون تجــاوز هـــذه الثنائيـــة ذاتهـــا ويبحثـــون عـــن الثابـــت / المتغيَّـــر و المطلـــق النســـبي ! (الـــذي يُـــذكر الإنســـان بيهـــوه إلـــه اليهـــود باعتبـــاره إلـــه الشـــعب اليهـــودي وحـــده , مطلـــق ذاتـــي !) , فهـــو هنـــا , دون شـــك مطلـــق /نســـــــــبي,ثابت/متغير, موضـــــــــوعي/ذاتي.

والماديـــة الجديـــدة ليســـت جديـــدة تمامـــا، فقـــد أدركهـــا الســـفطائيون منـــذ البداية،فقـــد أكـــدوا أن العـــالم فـــي حركـــة دائمـــة وأن العقـــل غيـــر قـــادر علـــى الوصـــول إلـــى الواقـــع، وأنـــه لـــو وصـــل إليـــه فلـــن يمكنـــه التعامـــل معـــه، ولـــو تعامـــل معـــه فلـــن يمكنـــه التواصـــل مـــع العقـــول الأخـــرى، ولـــو تواصـــل مـــع العقـــول الأخـــرى فلـــن يجـــدي هـــذا فتـــيلا، فـــالواقع الموضـــوعي ذاتـــه فـــي حركـــة دائمـــة ولايخضـــع لأي قـــانون، أي إن العلاقـــة التفاعليـــة التبادليـــة بـــين العقـــل والطبيعـــة، التـــي تشـــكل أســـاس الماديـــة القديمـــة، أســـاس غيـــر راســـخ ومنـــذ عصـــر النهضـــة فـــي الغـــرب والاســـتنارة، كـــان هنـــاك دائمـــا دعـــاة الاســـتنارة المظلمـــة : فكـــان هنـــاك هـــوبز ينبـــه الـــى الـــذئب الـــرابض فـــي الإنســـان والمـــاركيز دي صـــاد الـــذي ادرك عـــدم اكتـــراث الطبيعـــة بالغائيـــة الانســـانية وادرك الصـــيرورة الكاملـــة ، فقـــرر مـــن البدايـــة أن يســـقط فـــي قبضـــتها ويـــدخل حديقـــة الحيـــوان الـــي رآهـــا هـــوبز فيعـــذب الضـــحايا ويقتلهـــا حتـــى يـــدخل علـــى نفســـه المتعـــة الجنســـية الحقـــة!ومع هـــذا دخلـــت الفلســـفة الغربيـــة مرحلـــة عقلانيـــة ماديـــة تـــدور فـــي إطـــار الكـــل الثابـــت المـــادي المتجـــاوز حـــى منتصـــف القـــرن التاســـع عشـــر. وحـــين بـــدأ شـــوبنهاور مرحلـــة الســـيولة الشـــاملة ، جعـــل مـــن الإرادة مطلقـــة النســـبي، ثابـــة المتغيـــر ثـــم جـــاء

نيتشه بإرادة القوة وتوالت الثوابت المتغيرة، فهناك برجسون ووثبه الحياة (إيلان فيتال) والفينومنونوجيا وعالم الحياة (ليبنزفيلت)والبنيوية ومفهوم البنية، وكل هذه الفلسفات تقف بشراسة ضد الفلسفة الهيجيلية ومع هذا فإن مطلقها المتغير يشبه في كثير من الوجوه العقل الهيجلي المطلق غير المكتمل الذي يصل إلي كماله في التاريخ داخل الزمان فهو مشروع مستمر يدور حول ثابت متغيرمطلق نسبي لايصل إلى ثباته وإطلاقه الكاملين إلا في نهاية التاريخ.وهنا ظهر دريدا ليكمل مشروع المادية الجديدة فيعلن أن المطلق النسبي الثابت المتغير يسقط هو الاخر في المتافيزيقا إذ إنه ينسب لنفسه التجاوز والثبات ولذا لابد من الإصرار على الصيرورة النسبية والاحتمالية الكاملة وإنكار أي سببية، والإصرار على أسبقية اللغة على الواقع وهو مايعني أن لعب الدوال وراقصها هو الحقيقة الواحدة فيحدث تناثر للمعنى في النص والنصوص ولايبقى شئ سوى الصيرورة الحقة ورقص القلم والقصص الصغرى التي ليس لها معنى عام ويختفي الحق والحقيقة ويصبح من لغو الحديث الإشارة إلى إقامة العدل في الأرض.

إن المادية الجديدة كامنة في المادية القديمة , و مع هذا فهي تختلف عنها جوهرياً , فالمادية الجديدة ليست ثورة ضد الميتافيزيقيا الإيمانية و حسب , و إنما هي أيضاً ضد الميتافيزيقيا المادية , بكل إيمانها بالثبات و التجاوز و الإنسانية مقدرة العقل على إدراك الواقع و تجريد قوانينه منه , بمعنى أنها ثورة على العقلانية المادية ذاتها.



-العقلانية المادية و اللاعقلانية المادية

ويرتبط مفهوم المادية القديمة و الجديدة بمفهوم العقلانية المادية و اللاعقلانية المادية , و العقلانية هي الإيمان بأن العقل قادر على إدراك الحقيقة من خلال قنوات إدراكية مختلفة من بينها الحسابات المادية الصارمة دون استبعاد العاطفة و الإلهام و الحدس و الوحي, و الحقيقة حسب هذه الرؤية يمكن أن تكون حقيقة مادية بسيطة , أو حقيقة إنسانية مركبة ,أو حقائق تشكل إنقطاعاً في النظام الطبيعي.

و من ثم يمكن لهذا العقل أن يدرك المعلوم ولا يرفض وجود مجهول , و هذا العقل يدرك تماماً أنه لا ((يؤسس)) نظماً أخلاقية أو معرفية , فهو يتلقى بعض الأفكار الأولية و يصوغها استنادا إلى المنظومة الأخلاقية الأولية و يصوغها استناداً إلى المنظومة أخلاقية و معرفية مسبقة,

ولكن هناك من يذهب الى أن العقلانية هي الإيمان بأن العقل قادر على إدراك الحقيقة , بمفرده دون مساعدة من عاطفة أو إلهام أو وحي , و بأن الحقيقة هي الحقيقة المادية المحضة لتي يتلقاها العق لوحدها من خلال الحواس , و بأن العقل إن هو إلا جزء من هذه الحقيقة المادية فهو يُوجد داخل حيز التجربة المادية محدوداً بحدودها (لا يمكنه تجاوزها) , و أنه بسبب ماديته هذه قادر على التفاعل مع الطبيعة/

المـــادة , و يمكنـــــه إنطلاقـــــاً منهـــــا (و منهـــا وحـــــدها) أن)) يؤســس ((منظومــات معرفيــة وأخلاقيــة ودلاليــة و جماليــة تهديــه فــي حياتــه , و يمكنــه علــى أساســها أن يفهــم الماضــي و الحاضــر ويفســرهما , و يرشـــــد حاضـــــــره وواقعـــــــه و يخطـــــــط لمســــــتقبله .

و نحــن نــذهب الــى نــه لا توجــد علاقــة ضــرورة بــين العقلانيــة و الماديــة , فهنــاك نظــم سياســية ماديــة عقلانيــة و نظــم عقلانيــة ليســت ماديــة ,فالنظــام السياســي الأمريكــي مبنــي علــى فصــل الــدين عــن الدولــة , و قــد نجــح الأمريكيــون فــي بعــض مراحــل تــاريخهم علــى الأقــل فــي تطــوير نظــام عقلانــي يعبــر عــن مطــامع الشــعب الأمريكــي بشــكل معقــول , و النظــام النــازي هــو الآخــر كــان نظامــاً ماديــاً شرســاً فــي ماديتــه و لكنــه كــان عقلانيــاُ بصــورة تامــة و كــان يتحــرك فــي إطــار نظريــه العرقيــة الشــمولية التــي شــكلت مرجعيتــه الماديـــة الكامنـــة , و النظـــام الســـتاليني ,كـــان هـــو الآخـــر نظامـــاً ماديـــاً نموذجيــاً ,و لكــن لا يمكــن لأحــد أن يــزعم أنــه كــان نظامــاَ عقلانيــاً, و هنــاك نظـــم تســـتند الـــى عقائـــد دينيـــة يـــذخر بهـــا تـــاريخ الإنســـان.

بــل إننــا نــذهب الــى أن العقلانيــة الماديــة تــؤدي فــي مراحلهــا المتقدمــة الــى اللاعقلانيـــة الماديـــة , فالعقـــل المـــادي –كمـــا أســـلفنا – عقـــل تفكيكـــي عــدمي غيــر قــادر علــى التركيــب أو التجــاوز ,و يتضــح هــذا مــن أنــه عقــل قـــادر علـــى إفـــراز قصـــص (نظريـــات) صـــغرى مرتبطـــة بفضـــائها الزمنـــي و المكــاني المباشــر علــى أحســن تقــدير) كمــا يقــول دعــاة مــا بعــد الحداثــة

, (أي إنـه قـادر علـى إفـراز مجموعـة مـن الأقـوال التـي ليسـت لهـا أيـة شـرعية خـارج نطاقهـا المـادي المباشـر و الضـيق و المحسـوس) فالعقـل المـادي يُـدرك الواقـع بطريقـة حسـية مباشـرة (ومـن ثـم فهـو عقـل عـاجز عـن إنتـاج القصـص الكبـرى أو النظريـات الشـاملة ,و عـاجز عـن التوصـل للحقيقـة الكليـة و المجـردة التـي تقـع خـرج نطـاق التجريـب , و لـذا فالعقـل المـادي لا يُنكـر الميتافيزيقيـا و حسـب ,و إنمـا سـنكر الكليـات تمامـاً و ينتهـي بـه الأمـر بـالهجوم علـى العقـل الإنسـاني والعقـل النقـدي , لأنهمـا يتوهمـان أنهمـا يتمتعـان بقـدر مـن الإسـتقلال عـن حركـة الطبيعـة / المـادة,, و بـذلك يختفـي الإنسـان بوصـفه مرجعيـة نهائيـة ثـم تختفـي سـائر المرجعيـات , و تصـبح الإجـراءات هـي الشـيء الوحيـد المتفـق عليـه و هكـذا لا يتحـرر العقـل المـادي مـن الأخـلاق و حسـب و إنمـا يتحـرر مـن الكليـات و الهـدف و الغايـة و العقـل , ومـن ثـم تتحـول العقلانيـة الماديـة إلـى الاعقلانيـة الماديـة .

و إن كانـت العقلانيـة الماديـة أفـرزت فكـر حركـة الاسـتنارة و الوضـعية المنطقيـة و الكـل المـادي المتجـاوز للإنسـان , فقـد أفـرزت اللاعقلانيـة الماديـة النيتشـوية و الوجوديـة و الفينومونولوجيـة و هايـدجر و مـا بعـد الحداثـة , و الإنتقـال مـن التحـديث الـى الحداثـة و إلـى مـا بعـد الحداثـة هـو الإنتقـال مـن العقلانيـة الماديـة التـي تـربط بـين التجريـب و العقلانيـة) فـي مرحلـة الماديـة القديمـة و مرحلـة الماديـة الصـلبة (الـى اللاعقلانيـة الماديـة التـي تفصـل بينهمـا , فيـتم التجريـب دون ضـابط ودون إطـار) فـي

مرحلــة الماديـــة الجديـــدة والســـيولة الشـــاملة, (و تســـود الآن فـــي مجـــال العلـــوم نزعـــة تجريبيـــة محضـــة تـــرفض الكليـــات العقليـــة (إنســـانية كانـــت أم ماديـــة) و تلتصـــق تمامـــاً بالمـــادة و حركتهـــا و عـــالم الحـــواس.

و مـــع هـــذا يمكـــن القـــول بـــإن العقلانيـــة الماديـــة كثيـــراً مـــا تعـــايش مـــع اللاعقلانيـــة الماديـــة و تـــرتبط بهـــا , فالوضـــعية العلميـــة المنطقيـــة هـــي تعبيـــر عـــن العقلانيـــة الماديـــة حيـــث لا يـــؤمن الإنســـان إلا بالتجريـــب والأرقـــام , و لكنهـــا فـــي الوقـــت ذاتـــه تعبـــر عـــن العقلانيـــة الماديـــة , فهـــي لا تشـــتغل بالكليـــات و المنطلقـــات الفلســـفية , و قـــد أشـــرنا الـــى أن النازيـــة ,كمـــا يراهـــا بعـــض المـــؤرخين = هـــي قمـــة العقلانيـــة الماديـــة , و نحـــن نتفـــق معهـــم فـــي هـــذا , ونضـــيف أن هـــذا لا يمنـــع مـــن أن تكـــون قمـــة الاعقلانيـــة الماديـــة أيضـــا , فهـــي تعبيـــر عـــن تبلـــوُر نزعـــة تجريبيـــة محضـــة,و تـــرفض الكليـــات الإنســـانية والعقليـــة و أي شـــكل ن أشـــكال الميتافيزيقـــا , وتلتصـــق تمامـــاً بحركـــة المـــادة و عـــالم الحـــواس و لعـــل الفلســـفة العلمانيـــة الشـــاملة الأساســـية ,أي الداروينيـــة الإجتماعيـــة , هـــي تعبيـــر عـــن هـــذا التعـــايش و الترابط بين العقلانية و اللاعقلانية.

_المرجعيـــــة النهائيـــــة : المتجـــــاوزة و الكامنـــــة

قبـــل أن ننهـــي هـــذا الفصـــل قـــد يكـــون مـــن المفيـــد أن نعـــرف مصـــطلحين

ستكرران في هذه الدراسة:

الأول مصطلح المرجعية المتجاوزة في مقابل المرجعية الكامنة.

و المرجعية هي الفكرة الجوهرية التي تشكل أساس كل الأفكار في نموذج و الركيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها (فهي ميتافيزيقا النموذج ,) و المبدأ الواحد الذي تُرد إليه تلك الأشياء و تُنسب إليه ولا يُرد هو أو ينسب إليها , و من هنا يمكن القول بأن المرجعية هي المطلق المكتفي بذاته و الذي يتجاوز كل الأفراد و الأشياء و الظواهر , وهو الذي يمنح العالم تماسكه و نظامه و معناه و يحدد حلاله و حرامه , و عادة ما نتحدث عن المرجعية النهائية باعتبار أنها أعلى مستويات التجريد , تتجاوز كل شيء و لا يتجاوزها شيء , و يمكننا الحديث عن مرجعيتين: مرجعية نهائية متجاوزة ومرجعية نهائية كامنة,

_1المرجعية النهائية المتجاوزة

المرجعية النهائية يمكن أن كون نقطة خارج عالم الطبيعة مجاوزة لها و هي ما نسيمها المرجعية المتجاوزة (للطبيعة و التاريخ و الإنسان) و هذه النقطة المرجعية المتجاوزة , في النظم التوحيدية هي الإله الواحد

المنـزّه ع الطبيعة و التاريخ , الـذي يحركهما و لا يحل فيهما , ووجوده هو ضمان أن المسافة التي تفصل الإنسان عن الطبيعة فلن تُختزل و لن تُلغى , فالإنسان قد خلقه الله و نفخ فيه من روحه ,و كرمه,و استأمنه على العالم , و استخلفه فيه , أي أن الإنسان أصبح مركز الكون بعد أن حُمل عبء الأمانة و الاستخلاف,

كل هذا يعني أن الإنسان يحوي داخله بشكل مطلق الرغبة في التجاوز و رفض الذوبان في الطبيعة , و لذا فهو بظل مقولة مستقلة داخل النظام الطبيعي .كما أنه يعني أن إنسانية الإنسان وجوهره الإنساني مرتبط تمام الارتباط بالعنصر الرباني فيه ,ومع هذا فبإمكان النظم الإنسانية الهيومانية) التي لا تعترف بالضرورة بوجود الإله (أن تجعل الإنسان مركز الكون المستقل القادر على تجاوزه , و من ثم تصبح له أسبقية على الطبيعة/ المادة .

2-المرجعيـــــــــــــــة النهائيـــــــــــــــة الكامنـــــــــــــــة

يمكـن أن تكـون المرجعيـة النهائيـة الكامنـة في العـالم) الطبيعـة أو الإنسـان , (ومـن هنـا تسـميتنا لهـا بالمرجعيـة الكامنـة , و فـي إطـار المرجعيـة الكامنـة يُنظـر للعـالم باعتبـار أنـه يحـوي جاخلـه مـا يكفـي لتفسـيره دون حاجـة إلـى اللجـوء إلـى أي شـيء خـارج النظـام الطبيعـي , و لـذا , لابـد ان تسـيطر الواحديـة , وإن ظهـرت ثنائيـات فهـي مؤقتـة يـتم تصـفيتها فـي نهايـة الأمـر وفـي التحليـل الأخيـر , ففـي إطـار المرجعيـة الكامنـة لا يوجـد سـوى جـوهر واحـد فـي الكـون , مـادة واحـدة يتكـون منهـا كـل شـيء بمـا فـي ذلـك المركـز الكـامن ذاتـه) ومـن هنـا إشـارتنا أحيانـاً إلـى المرجعيـة الكامنـة الماديـة بأنهـا المرجعيـة النهائيـة الكامنـة أو المرجعيـة الواحديـة الماديـة (و نحـن نـذهب إلـى أن كـل الـنظم الماديـة تـدور فـي إطـار المرجعيـة الكامنـة , ومـن هنـا إشـارتنا إلـى الماديـة باعتبارهـا وحـدة الوجـود الماديـة,

و فـي إطـار المرجعيـة الماديـة الكامنـة , فـإن الإنسـان كـائن طبيعـي ,و لـيس مقولـة مسـتقلة داخـل النظـام الطبيعـي , و إنمـا هـو مسـتوعب تمامـاً فيـه ,و يسـقط تمامـاً فـي قضـية الصـيرورة , فتسـقط المرجعيـة الإنسـانية و تصـبح الطبيعـة/ الماديـة هـي المرجعيـــــة الوحيـــــدة النهائيـــــة,

و يـرتبط بهـذا التعريـف تعريفنـا لوحـدة الوجـود) الروحيـة و الماديـة , (و وحـدة الوجـود فـي تصـورنا تعنـي القـول بـأن مركـز العـالم (المبـدأ الواحـد) حـالّ و كـامن فيـه ,و هـو يبتـدي فـي صـيغتين مختلفتـين ظـاهراً , همـا فـي واقـع الأمـر صـيغة واحـدة بـــــرغم اخـــــتلاف التســـــميات التـــــي تطلـــــق عليـــــه:

أ- فـي المنظومـات الحلوليـة الكمونيـة الروحيـة) وحـدة الوجـود الروحيـة (يُسـمى المبـدأ الواحـد الإلـه , ولكنـه إلـه يحـلّ فـي مخلوقاتـه و يمتـزج ثـمّ يتوحـد معهـا و يـذوب فيهـا تمامـاً بحيـث لا يصـير لـه وجـود دونهـا و لا يصـير لهـا وجـود دونـه حلوليـة شـحوب الإلـه , فهـو إلـه اسـماً و لكنـه هـو الطبيعـة / المـادة فعـلاً , و قـد

طور هيجل هذه الصياغة فتحدث عن الروح المطلق أو روح التاريخ فيبد وكأنه يتحدث عن أمور روحية مثالية , و لكنه في واقع الأمر يتحدث عن عناصر مادية محسوسة,

ب- المنظومات الحلولية الكمونية المادية) وحدة الوجود المادية , (يتم الاستغناء تماماً عن أية لغة روحية أو مثالية و يُسمى المبدأ الواحد قوانين الطبيعة أو القوانين العلمية أو القوانين المادية أو قانون الحركة) ولذا فنحن نسميها حلولية من دون إله , (هذا القانون هو قانون شامل يمكن تفسير كل الظواهر – ومن بينها الظاهرة الإنسانية – من خلاله.

و برغم الاختلاف الظاهر بين وحدة الوجود الروحية و وحدة الوجود المادية فإن بنيتهما واحدة , يتسمان بالواحدية و بمحو الثنائيات و المقدرة على التجاوز..

–الوحدوية المادية

أما المصطلح الثاني الذي يشكل سيتكرر في هذه الدراسة فهو الوحدوية المادية وهي توحد الانسان بالطبيعة بحيث يرد كله الى مبدأ واحد كامن في الكون ومن ثم فإن عالمنا المادي لا يشير إلي أي شيئ خارجه فهو عالم لا ثغرات فيه ولا مساحات ولا انقطاع ولا غائيات تم إلغاء كل الثنائيات داخله وضمنها ثنائية الخالق والمخلوق والانسان والطبيعة والخير والشر والأعلى والأدنى وتم تطهيره تماما من المطلقات والقيم وتم اختزاله كله الى مستوى القانون الطبيعي/المادي/أو الطبيعة / المادة) المطلق العلماني النهائي (وفي مثل هذا العالم الواحدي الأملس يوجد مجال للوهم القائل بأن الانسان يحوي من الأسرار ما لا يمكن الوصول إليه وأن ثمة جوانب فيه غير خاضعة لقوانين الحركة المادية بل ويمكن تطبيق الصيغ الكمية والاجراءات العقلانية الأداتية على الانسان كما يمكن إدارة العالم بأسره حسب هذه الصيغ ويتحول العالم إلى واقع حسي مادي نسبي خاضع للقوانين العامة للحركة) ومن ثم قابل للقياس

والتحكم الهندسي والتنميط) وإلى مادة استعمالية يمكن توظيفها وحوسلتها(

في هذا الإطار تصبح المعرفة مسألة تستند إلى الحواس وحسب، ويصبح العالم الطبيعي هو المصدر الوحيد أو الأساسي للمنظومات المعرفية والأخلاقية وترد الأخلاق إلى الاعتبارات المادية) الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (وتنفصل الحقائق المادية تماما عن القيمة ويظهر العلم المنفصل عن الأخلاق وعن الغائيات الإنسانية والدينية والعاطفية والأخلاقية وتصبح الحقائق المادية) الصلبة أو السائلة (المتغيرة هي وحدها المرجعية المعرفية والأخلاقية المقبولة وتصبح سائر الأمور) المعرفية والأخلاقية (نسبية صالحة للتوظيف والاستخدام بل إن هذه الرؤية الواحدوية المادية في مراحلها المتقدمة بإنكارها أي ثبات ينتهي بها الأمر إلى إنكار وجود الماهيات والجوهر، بل والطبيعة البشرية نفسها ، باعتبارها جميعا اشكال من الثبات والميتافيزيقا عالم العلمانية الشاملة والترشيد في الإطار المادي.

الفصل الثاني : إشكالية الطبيعي و الإنساني

النموذج التفسيري المادي قد أحرز شيوعا غير مسبوق لأسباب بيناها في الفصل السابق، لكن هذا النموذج غير قادر على التعامل مع الإنسان بنفس الكفاءة التي يتسم بها حين يتعامل مع الأشياء.

الفرق بين الظاهرة الطبيعية و الظاهرة الإنسانية

ثمة ثنائية فضفاضة تسم الوجود الإنساني (الخالق-المخلوق، الإنسان-الطبيعة). و ثنائية الإنسان-الطبيعة هي أهم هذه الثنائيات. و قد عبرت عن نفسها في الجدل المثار في العلوم الإنسانية منذ ظهورها في القرن التاسع عشر. و هل هناك علم طبيعي مختلف عن العلوم

الإنســــانية أم أن هنـــــاك وحـــــدة (أي واحديـــــــة) للعلـــــوم؟
يطلـــق مصـــطلح العلـــم الطبيعـــي علـــى كـــل دراســـة تتنـــاول معطيـــات الواقـــع المـــادي بكلياتـــه و جزئياتـــه. و وســـيلة هـــذه الدراســـة هـــي مـــنهج الملاحظـــة المباشـــرة و التجربـــة المتكـــررة و المتنوعـــة. و الدراســـة و عمليـــات التجريـــب كـــذلك تـــتم بهـــدف التفســـير مـــن خـــلال التوصـــل إلـــى تعميمـــات و قـــوانين تحقـــق الانتقـــال مـــن الخـــاص إلـــى العلـــم، و تكشـــف عـــن العلاقـــات المطـــردة الثابتـــة بـــين الظـــواهر. و هـــذه القـــوانين يـــتم التعبيـــر عنهـــا عـــن طريـــق تحويـــل صـــفات الكيـــف (التـــي لا تقـــاس) إلـــى صـــفات كـــم بحيـــث يـــتم التعبيـــر عنهـــا برمـــوز رياضـــية. و تتميـــز قـــوانين العلـــوم الطبيعيـــة بأنهـــا دقيقـــة و عامـــة تتخطـــى الزمـــان و المكـــان، و هـــي حتميـــة (و لكنهـــا، بعـــد اهتـــزاز الحتميـــة، أصـــبحت احتماليـــة ترجيحيـــة : ترجيحيـــة تقـــارب اليقـــين، و تظـــل صـــالحة للاســـــــتعمال حتـــــــى يثبـــــــت بطلانهـــــــا(
و يـــذهب الـــبعض إلـــى أن نمـــوذج العلـــوم الطبيعيـــة لا بـــد أن يطبـــق فـــي كـــل العلـــوم الأخـــرى، بمـــا فـــي ذلـــك العلـــوم الاجتماعيـــة و الإنســـانية. و قـــد لاحـــظ كثيـــر مـــن العلمـــاء فـــي الشـــرق و الغـــرب خلـــل مثـــل هـــذه المحاولـــة، نـــذكر مـــنهم د. حامـــد عمـــار، د. توفيـــق الطويـــل، د. حســـن الســـاعاتي، د. الجـــوهري الـــذين بينـــوا الاختلافـــات بـــين الظـــاهرة الإنســـانية و الظـــاهرة الطبيعيـــــة، و نوجزهـــــا فيمـــــا يلـــــي:

1. أ) الظـــاهرة الطبيعيـــة مكونـــة مـــن عـــدد محـــدود نســـبيا مـــن العناصـــر التـــي تتميـــز بـــبعض الخصـــائص البســـيطة، و هـــذا يعنـــي أنـــه يمكـــن تفتيتهـــا إلـــى الأجـــزاء المكونـــة لهـــا. كمـــا أن الظـــاهرة الطبيعيـــة توجـــد داخـــل شـــبكة مـــن العلاقـــات الواضـــحة و البســـيطة نوعـــا، و التـــي يمكـــن رصـــدها.
1. ب) الظـــاهرة الإنســـانية مكونـــة مـــن عـــدد غيـــر محـــدود تقريبـــا مـــن العناصـــر

التـــي تتميـــز بقـــدر عـــال مـــن التركيـــب، و يســـتحيل تفتيتهـــا، لأن العناصـــر مترابطـــة بشـــكل غيـــر مفهـــوم لنـــا. و حينمـــا يفصـــل الجـــزء عـــن الكـــل، فـــإن الكـــل يتغيـــر تمامـــا و يفقـــد الجـــزء معنـــاه. و الظـــاهرة الإنســـانية توجـــد داخـــل شـــبكة مـــن علاقـــات متشـــابكة متداخلـــة بعضـــها غيـــر ظـــاهر و لا يمكـــن ملاحظتـــه.

.2أ) تنشـأ الظـواهر الطبيعيـة عـن علـة أو علـل يسـهل تحديـدها و حصـرها، و يسـهل بالتـالي تحديـد أثـر كـل علـة فـي حـدوثها و تحديـد هـذا الأثـر تحديـــــــــــــــدا رياضـــــــــــــــــــيا.

.2ب) الظـاهرة الإنسـانية يصـعب تحديـد و حصـر كـل أسـبابها، و قـد تعـرف بعـض الأسـباب لا كلهـا، و لكـن الأسـباب تكـون فـي العـادة متداخلـة متشـابكة، و لـذا يتعـذر فـي كثيـر مـن الحـالات حصـرها و تحديـد نصـيب كـل منهـا فـي توجيـه الظـاهرة التـي ندرسـها.

.3أ) الظـاهرة الطبيعيـة وحـدة متكـررة تطـرد علـى غـرار واحـد و بغيـر اسـتثناء : إن وجـدت الأسـباب ظهـرت النتيجـة. و مـن ثـم، نجـد أن التجربـة تجـرى فـي حالـة الظـاهرة الطبيعيـة علـى عينـة منهـا ثـم يعمـم الحكـم علـى أفرادهـا فـي الحاضـر و الماضـي و المسـتقبل.

.3ب) الظـاهرة الإنسـانية لا يمكـن أن تطـرد بدرجـة الظـاهرة الطبيعيـة نفسـها، لأن كـل إنسـان حالـة متفـردة، و لـذا نجـد أن التعميمـات، حتـى بعـد الوصـول إليهـا، تظـل تعميمـات قاصـرة و محـدودة و منفتحـة و تتطلـب التعـديل فـي أثنـاء عمليـة التطبيـق مـن حالـة إلـى أخـرى.

.4أ) الظـاهرة الطبيعيـة ليسـت لهـا إرادة حـرة و لا وعـي و لا ذاكـرة و لا ضـمير و لا شـعور و لا أنسـاق رمزيـة تسـقطها علـى الواقـع و تدركـه مـن خلالهـا، فهـي خاضـعة لقـوانين موضـوعية (برانيـة) تحركهـا.

.4ب) الظـاهرة الإنسـانية علـى خـلاف هـذا، ذلـك لأن الإنسـان يتسـم

بحرية الإرادة التي تتدخل في سير الظواهر الإنسانية، كما أن الإنسان له وعي يسقطه على ما حوله و على ذاته فيؤثر هذا في سلوكه. و الإنسان له ذاكرة تجعله يسقط تجارب الماضي على الحاضر و المستقبل، كما أن نمو هذه الذاكرة يغير من وعيه بواقعه. و ضمير الإنسان يجعله يتصرف أحيانا بشكل غير منطقي (من منظور البقاء و المنفعة المادية) كما أن الأنساق المادية الرمزية للإنسان تجعله يلون الواقع البراني بألوان جوانية.

.5أ) الظواهر الطبيعية ينم مظهرها عن مخبرها، و يدل عليه دلالة تامة بسبب ما بين الظاهر و الباطن من ارتباط عضوي شامل يوحد ما بينهما فيجعل الظاهرة الطبيعية كلا مصمتا تحكمه من الداخل و الخارج قوانين بالغة في الدقة لا يمكنها الفكاك منها، و لهذا تنجح الملاحظة الحسية و الملاحظة العقلية في استيعابها كلها.

.5ب) الظواهر الإنسانية ظاهرها غير باطنها (بسبب فعاليات الضمير و الأحلام و الرموز) و لذا فإن ما يصدق على الظاهر لا يصدق على الباطن، و حتى الآن، لم يتمكن العلم من أن يلاحظ بشكل مباشر التجربة الداخلية للإنسان بعواطفه المكبوتة و أحلامه الممكنة أو المستحيلة.

.6أ) لا يوجد مكون شخصي أو ثقافي أو تراثي في الظاهرة الطبيعية، فهي لا شخصية لها، مجردة من الزمان و المكان تجردها من الوعي و الذاكرة و الإرادة.

.6ب) المكون الشخصي و الثقافي و الذاتي مكون أساسي في بنية الظاهرة الإنسانية. و الثقافة ليست شيئا واحدا و إنما هي ثقافات مختلفة، و كذا الشخصيات الإنسانية.

.7أ) معدل تحول الظاهرة الطبيعية يكاد يكون منعدما (من وجهة نظر

إنسانية)، فهو يتم على مقياس كوني، كما أن ما يلحق بها من تغير يتبع نمط برنامج محدد، و لذا فإن الظواهر الطبيعية في الماضي لا تختلف في أساسياتها عنها في الحاضر، و يمكن دراسة الماضي من خلال دراسة الحاضر.

.7ب) معدل التغير في الظواهر الإنسانية أسرع بكثير و يتم على مقياس تاريخي، و ما يطرأ عليها من تغير قد يتبع أنماطا مسبقة، و لكنه قد ينسلخ عنها. و عالم الدراسات الاجتماعية لا يستطيع أن يرى أو يسمع أو يلمس الظواهر الإنسانية التي وقعت في الماضي، و لذا فهو يدرسها عن طريق تقارير الآخرين الذين يلونون تقاريرهم برؤيتهم، فكأن الواقعة الإنسانية في ذاتها تفقد إلى الأبد فور وقوعها.

.8أ) بعد دراسة الظواهر الطبيعية و الوصول إلى قوانين عامة، يمكن التثبت من وجودها بالرجوع إلى الواقع. و لأن الواقع الطبيعي لا يتغير كثيرا، فإن القانون العام له شرعية كاملة عبر الزمان و المكان.

.8ب) بعد دراسة الظواهر الإنسانية، يصل الإنسان إلى تعميمات. فإن هو حاول تطبيقها على مواقف إنسانية جديدة فإنه سيكتشف أن المواقف الجديدة تحتوي على عناصر جديدة و مكونات خاصة، إذ من غير الممكن أن يحدث في الميادين الاجتماعية ظرفان متعادلان تماما، و متكافئان من جميع النواحي.

.9أ) لا تتأثر الظواهر الطبيعية بالتجارب التي تجرى علينا سلبا أو إيجابا، كما أن القوانين العامة التي يجردها الباحث و النبوءات التي يطلقها لن تؤثر في اتجاهات مثل هذه الظواهر، فهي خاضعة تماما للبرنامج الطبيعي .

.9ب) تتأثر العناصر الإنسانية بالتجربة التي قد تجرى عليها، فالأفراد موضوع البحث يحولون من سلوكهم (عن وعي أو عن غير وعي)

لوجودهم تحت الملاحظة، ففي إمكانهم أن يحاولوا إرضاء صاحب التجربة أو يقوضوا من نتائجه. كما أن البنوءات التي يطلقها الباحث قد تزيد من وعي الفاعل الإنساني و تغير من سلوكه.

10.أ) يمكن للباحث الذي يدرس الظاهرة الطبيعية أن يتجرد إلى حد كبير من أهوائه و مصالحه، لأن استجابته للظاهرة الطبيعية و للقوانين الطبيعية يصعب أن تكون استجابة شخصية أو أيديولوجية أو إنسانية، و لذا يمكن للباحث أن يصل إلى حد كبير الموضوعية.

10.ب) أما الباحث الذي يدرس الظاهرة الإنسانية فلا يمكنه إلا أن يستجيب بعواطفه و كيانه و تحيزاته، و من خلال قيمه الأخلاقية و منظوماته الجمالية و الرمزية، و لذا يصعب عليه التجرد من أهوائه و مصالحه و قيمه التي تعوقه في كثير من الأحيان عن الوصول إلى الموضوعية الصارمة.

و لكل ما تقدم فإن من الممكن إجراء التجارب المباشرة المنضبطة المتكررة على العناصر الطبيعية، و يمكن قياسها بمقاييس كمية رياضية، فهي تخلو من الاستثناءات و التركيب و الخصوصيات، و يمكن التوصل إلى قوانين عامة تتسم بالدقة تنطبق على الظاهرة في كليتها و في جوانيتها و برانيتها. أما الظاهرة الإنسانية، فلا يمكن إجراء التجارب المباشرة المنضبطة عليها و يستحيل تصويرها بالمعادلات الرياضية الدقيقة إذ لا تخلو من الاستثناءات و التركيب و الخصوصيات، و لذا لا يمكن التوصل إلى قوانين عامة (و إن تم التوصل إلى قوانين فلابد أن تعوزها الدقة و الضبط). و هناك عدد كبير من الكتاب الغربيين من أوائلهم فيكو، و من أهمهم كانط و ديلتاي و ريكرت، ينطلقون من محاولة التمييز بين الإنسان و الطبيعة. و لكن غالبية المفكرين الغربيين

يدورون في إطار الواحدية المادية (أو الواحدية المثالية) و يحاولون القضاء على هذه الثنائية تماما و إلغاء الحيز الإنساني و بالتالي يدافعون عن وحدة العلوم

-إشـــــكالية الإنســـــاني والطبيعـــــي فـــــى العـــــالم العربـــــي

ثمــة وعــي عميــق بإشــكالية التمييــز بــين الإنســاني والطبيعــي فــى الأدبيــات العربيــة ، فــالمفكر الماركســي د. فــؤاد مرســي يــدعو بوضــوح فــى كتــاب (إشــكالية العلــوم الاجتماعيــة) فــى دراســة لــه بعنــوان)) المــنهج بــين الوحــدة والتعــدد ((إلــى عــدم التمييــز بــين الإنســان والطبيعــة ، فيعــرف الإنســان بأنــه ((قــوة مــن قــوى الطبيعــة ؛ إنســان طبيعــى / مــادى يتكيــف معهــا ، ولكنــه فــى الوقــت نفســه يعيــد صــيغتها . وهــذه هــى الإشــكالية الكبــرى التــى تواجــه المــاديين ودعــاة العلمانيــة الشــاملة : هــل الإنســان الطبيعــى / المــادى يــذعن للطبيعــة أم أنــه يهــيمن عليهــا ؟ وتتضــح الإشــكالية فــى كتابــات د . فــؤاد مرســى نفســه ، فهــو يؤكــد أن الإنســان ســيزداد بعــداً عــن الحيــوان ، ولكنــه يعــود ويعــرف الإنســان فــى اطــار طبيعــى مــادى ويجــد أن ((الاقتصــــاد هــــو مجــــال رئيســــى للعلاقــــة المتبادلــــة بــــين الطبيعــــة والمجتمــع ((فبعــد أن ابتعــد)) الإنســان عــن الحيــوان، وهــو مــا يعنــى ابتعــادة عــن الطبيعــة وتفوقــه عليهــا فإنــه يعــود فيــدخل فــى علاقــة ((تبادليــة)) تفتــرض المســاواة الكاملــة . وتظهــر هــذه التبادليــة بشــكل اوضــح حــين يوحــد د. فــؤاد مرســي بــين الطبيعــة والمــادة ، فيقــول : ((لهــذا اصــبح العــالم كلــه ، طبيعيــاً وأجتماعيــاً ، علمــاً ذا طــابع أجتمــاعى)). واصــبح تقــدم البشــرية حاليــاً رهنــاً إلــى حــد مبيــر بالتــداخل الأكبــر والتفاعــل بــين العلــوم الاجتماعيــة والعلــوم الطبيعيــة)) . والتــداخل والتفاعــل قــد يعنــى ثنائيــة (وهــو مــا يرفضــه الفكــر المــادى) ، وقــد يعنــى مســاواةً وتوحــداً ،

وهو على الأرجح ، ولذا نجده فى السطر التالى يقول : ((إن كل محاولة للفصل بين المجتمع والطبيعة تصبح محاولة وهمية . فوجود المجتمع هو جانب من وجود الطبيعة)). ولكنه يعود للثنائية فيقول) إن وحدة الثورتين التكنولوجية والاجتماعية كفيلة فى المستقبل أن تجعل من البشر لأول مرة فى التاريخ ، السادة الحقيقيين للطبيعة)). ثم يتحدث عن احتدام الصراع بين الطبيعة والإنسان وعن (الإنسان الشامل الذى يختزن فى نفسه قدراً لا مثيل له من المعرفة بالكون كله)). ولكن ما النتيجة النهائية لهذا التأرجح الكوميدى بين الأندماج العضوى فى الطبيعة والإذعان لها من جهة، والانفصال عنها وتملكها والهيمنة عليها من جهة أخرى ؟ يختتم الدكتور مرسى مقالة بقوله ((هناك يتوحد الإنسان تماماً مع المجتمع والطبيعة)) أى إن الحالة الجنينية تنتصر تماماً . وعلى كل فإن عنوان هذا الجزء من المقال هو ((نحو وحدة الكون)) وليس : نحو مركزية الإنسان فى الكون أي هيمنته عليه.

ولكن العدد الأكبر من علمائنا الأجلاء كانوا من المدافعين عن الإنسان ضد المادية والطبيعية . فعلى سبيل المثال ، يقول الدكتور حامد عمار فى كتابه من) همومنا التربوية والثقافية : (

))إن منهج التفكير العلمى الذى ارسته العلوم الطبيعية قد شاع باعتباره المنهج الوحيد فى الوصول إلى المعرفة الصحيحة . واصطنعت العلوم

الأجتماعيـــة الإنســـانية هـــذا المـــنهج فـــى دراســـتها وبحوثهـــا . بيـــد أن معظمهـــا قـــد توقـــف عنـــد المرحلـــة النيوتونيـــه مـــن منـــاهج البحـــث العلمـــى الطبيعـــى، واختـــزال المـــنهج إلـــى تجزئـــة الظـــواهر وتفكيـــك أجزائهـــا ، ومحاولـــة فـــرض الفـــروض المرتبطـــة بـــذلك الجـــزء أو ذاك ، وإخضـــاع الفـــروض حولـــه للقيـــاس والأختبـــار . وجـــرى العـــرف عنـــد الكثيـــرين علـــى اعتبـــار النتـــائج علميـــة ثابتـــة غيـــــــــــــر قابلـــــــــــــة للتعـــــــــــــديل.

وأطلـــق علـــى هـــذه التجزئـــة للظـــواهر وإخضـــاعها للدراســـة الميدانيـــة العينيـــة مـــا عـــرف بأســـم المـــنهج الأمبيريقـــى أو الوصـــفى ، محلـــلاً للظـــاهرة كمـــا توجـــد فـــى موقعهـــا الزمـــانى والمكـــانى ...ودون تصـــور لأنـــواع العلاقـــات ودينامياتهـــا فـــى الظـــاهرة المدروســـة مـــع ســـياقها الثقـــافى الاجتمـــاعى. ومـــن ثـــم فقـــدت الدراســـة منظوماتهـــا العضـــوية الديناميـــة فـــى إطـــار الزمـــان والمكـــان والبعـــد التـــــاريخى لنشـــــــأتها وتطورهـــــــا وتوظيفهـــــــا الاجتمـــــــاعي. واســـتقر فـــى اذهـــان كثيـــر مـــن البـــاحثين الاجتمـــاعيين أن نتـــائجهم علميـــة لا يرقـــى إليهـــا التصـــحيح ... واصـــبح مـــن المســـلمات فـــى الرســـائل الجامعيـــة فـــى العلـــوم الإنســـانية ألا تعـــاد دراســـة الموضـــوع ؛ لأن مـــا ســـبق مـــن بحـــوث قـــد اســـتقر ، باعتبـــاره حقـــائق علميـــة . ثـــم أن البحـــوث تـــدعى الموضـــوعية العلميـــة المطلقـــة ، وأن لا شـــأن لـــذات الباحـــث أو أيدولوجيتـــه أو تحيزاتـــه أى تـــدخل فـــى مختلـــف مراحـــل البحـــث وتفســـيراته ، وأنمـــا جـــاءت النتـــائج علميـــــة مـــــن خـــــلال معطيـــــات الواقـــــع العينـــــى.

ومـــع هـــذا الأختـــزال الأمبريقـــى الوضـــعى الـــوظيفى للمـــنهج العلمـــى الطبيعـــى

فـى آفاقه الرحبة والمتجددة ، فـإن ثمة مناهج أخرى للمعرفة العلمية تبدأ من الملاحظة والمشاركة الملاحظة (بكسر الحاء) أمتداداً إلى الحس التاريخى والوعى الذاتي.

والبصيرة والحدس ، والفهم الكيفى فى السياق الثقافي الاجتماعى التاريخى والخبرة الإنسانية . وليس بالضرورة أن تلجأ تلك المناهج إلى البيانات الرقمية والقياس ؛ إذ إن تلك الأدوات كثيراً ما تشوه المعرفة بعالم الوعى والخبرة والفهم النوعى للواقع وإمكانات المستقبل ، فضلاً عن قصورها عن فهم القيم وديناميات الدوافع والأخلاق.

إن هذه الأساليب والأدوات المعرفية تصبح علمية ما دامت تقوم على ملاحظة منتظمة أو خبرة مطردة ، ومادامت بياناتها وشواهدها منطقية ومتسقة فى نموذج مفاهيمى . وتتدعم علميتها مع اختبارها وتقييمها على ارض الواقع ومن خلال الممارسة ، وقد تتدعم فيما بعد بجوانب كمية للتوضيح والتعزيز . ومن هنا فإن على العلوم الاجتماعية الإنسانية ومجالاتها فيما يستقر بها من الشعور والوعى ومن اللاشعور والحدس دون ان تُنقص عوامل الذاتية من جدوى المعارف المتولدة من مثل هذه المناهج . وفى قضايا التربية والاجتماع وعلم النفس مساحات عريضة لجدوى توظيف تلك المناهج بما فيها من ظبط وتنظيم وقابلية للمراجعة والتفنيد والتطوير.((

وفى كتاب) إشكالية العلوم الاجتماعية (يبين الدكتور حسن الساعاتى فى مقال بعنوان ((إشكالية المنهج فى العلوم الاجتماعية))

:أن علماء الاجتماع الذين تأثروا بمناهج اللدراسة والعلوم الطبيعية

يـــذهبون إلـــى ((أن العلـــوم الأجتماعيـــة ، وعلـــى رأســـها علـــم الاجتمـــاع ، لا تكـــون علومـــاً بمعنـــى الكلمـــة ، أى دقيقـــة ومظبوطـــه النتـــائج ، إلاإذا ترســـم علماءهـــا خطـــا البـــاحثين فـــى العلـــوم الطبيعيـــة التـــى يرتكـــز محـــور التفكيـــر فـــى ظواهرهـــا علـــى التجريـــب ، أي مـــا يجرونـــه عليهـــا مـــن تغييـــر مقصـــود وبطريقـــة مرســـومة مـــن قبـــل ، مســـتهدفين أهـــدافاً معينـــة يســـتنتجون منهـــا الحقـــائق ، إذا تكـــرر اســـتقراؤها مـــن تجـــارب مماثلـــة صـــارت نظريـــات علميـــة أو قـــوانين ثابتـــة .

وقـــد فـــات هـــؤلاء العلمـــاء الغربيـــون ، وغيـــرهم ممـــن قلـــدوهم فـــي مســـارهم الفكـــري مـــن دون رويـــة واستبصـــار ، أن الظـــواهر الاجتماعيـــة تختلـــف تمامـــاً عـــن الظـــواهر الطبيعيـــة التـــى لا عقـــل و لا إرادة لعناصـــرها، والتـــى يـــنم مظهرهـــا عـــن مخبرهـــا ، لأنهـــا فـــى رأينـــا أحاديـــة النســـق ، تحكمهـــا كـــلاً أو جـــزءاً قـــوانين ونظريـــات واحـــدة لا تتبـــدل . ولـــذلك نجـــد أن كـــلاً مـــن الملاحظـــة الحســـية ، أى المشـــاهدة ، والملاحظـــة العقليـــة . أى التأمـــل والأستبصـــار ، وجميـــع خطـــوات التجريـــب التـــى تُجـــرى عليهـــا ، بوصـــفها ظـــواهر طبيعيـــة أحاديـــة النســـق ، تســـتوعبها كلهـــا فـــى جميـــع مظاهرهـــا ، لأن ظاهرهـــا لا يختلـــف عـــن باطنهـــا فـــي شـــيء ، حتـــى أنـــه ليـــدل عليـــه دلالـــة تامـــة ، لمـــا بـــين الظـــاهر والبـــاطن مـــن ارتبـــاط عضـــوى شـــامل متكامـــل .

أمـــا الظـــواهر الاجتماعيـــة فتختلـــف عـــن الظـــواهر الطبيعيـــة فـــي أنهـــا ، بوصـــفها ظـــواهر عنصـــرها الأساســـى الإنســـان الأجتمـــاعى العاقـــل ذو الإرادة ، الـــذى يعـــيش مُعاشـــراً لغيـــره مـــن البشـــر ومرتبطـــاً بهـــم بشـــتى العلاقـــات الأجتماعيـــة ،

نقــول تختلــف فــى أنهــا ثنائيــة النســق . فكمــا أن للإنســان جوانية وربانيــة ، فهــى بالمثــل ذات نســقين، أحــدهما جــوانى أي بــاطن، والآخــر برانــي أى ظــاهر . ومــا دامــت كــذلك ، فــإن البحــث فيهــا ينقســم إلــى قســمين : أحــدهما يُعنــى بالنســق البرانــي ، أى بمــا يتبــدى مــن الظــاهرة الاجتماعيــة للحــواس فتدركــة وتتعقلــه ، والآخــر يُركِّــز علــى النســق الجــواني الخفــى منهــا ، الــذى يُعــد غرفــة عمليــات للنســق البرانــي ، ليســتجلبه ويدركــه ويتعقله.((

- الشـــــــــــــــــــــــــــرح والتفســــــــــــــــــــــــــــير

انطلاقـــا مـــن ثنائيـــة الإنســـان والطبيعـــة يـــتم التمييـــز بـــين الشـــرح والتفســـير) بالألمانيـــة :فرشـــتيهن (verstehen وكلمـــة يشـــرح أصـــبحت تعنـــي بشـــكل كامـــل أو يزيـــل اللـــبس تمامـــا . بـــل وأصـــبحت لهـــا أبعـــاد تفكيكيـــة، فهـــي تعنـــي تعريـــف أســـباب الظـــاهرة وردهـــا إلـــى مبـــدأ عـــام واحـــد أو عـــدة مبـــادئ .كمـــا أنهـــا قـــد تعنـــي يفضـــح أو ينـــزع الســـر عـــن. وهـــذه الأبعـــاد ليســـت واضـــحة فـــي اللغـــة العربيـــة بالقـــدر الكـــافي ، إلا أنهـــا أكثـــر وضـــوحا فـــي اللغـــة الانجليزيـــة فكلمـــة يشـــرح باللغـــة الانجليزيـــة هـــي اكســـبلين explain مـــن الفعـــل اللاتينـــي اكســـبلاناري explanare بمعنـــي يُســـطح الشـــئ أو يســـويه أو يجعلـــه مســـتويا) كلمـــة بلـــين plane الانجليزيـــة تعنـــي الســـطح المســـتوي (هـــذا علـــى عكـــس فعـــل انتربريـــت) مـــن الفعـــل اللاتينـــي انتربريتـــاري interpretari وهـــو يعنـــي يفـــاوض (ففعـــل انتربريـــت يعنـــي يبـــرر أو يقـــوم بـــدور المتـــرجم ومـــن الواضـــح أن كلمـــة يشـــرح تـــدور فـــي إطـــار المرجعيـــة الموضوعية:يســـطح ويســـوي حتـــى يســـتوي مـــع معياريـــة برانيـــة أمـــا كلمـــة يُفسّـــر فهـــي لا تنفـــي الأبعـــاد الذاتيـــة الاجتهاديـــة لعمليـــة الإدراك. وهـــذا التـــدخل بـــين التفســـير) بمعنـــى الاجتهـــاد فـــي فهـــم الظـــاهرة وجعلهـــا مفهومـــة إلـــى حـــد مـــا مـــن خـــلال التعـــاطف معهـــا وفهمهـــا أو تفهمهـــا مـــن الـــداخل (والشـــرح بمعنـــى إدخـــال الظـــاهرة فـــي شـــبكة الســـببية الصـــلبة المطلقـــة والقـــوانين الطبيعيـــة وكشـــف العلاقـــة الموضـــوعية بـــين الســـبب والنتيجـــة) يعـــود إلـــى أن العلـــوم الطبيعيـــة والرياضـــة بنماذجهـــا العقلانيـــة الموضـــوعية الماديـــة تلقـــي بظلالهـــا الكثيفـــة علـــى العلـــوم الانســـانية فالاســـتنباط) العقلانـــي (هـــو مـــنهج العلـــوم الرياضـــية والاســـتقراء (التجريبـــي) هـــو.

منهج العلوم الطبيعية وكلاهما يحاول أن يصل إلى درجة عالية من الدقة والعمومية في نتائجه ومن ثم يحاول بعض علماء الدراسات الانسانية تبني المناهج السائدة في العلوم الطبيعية والرياضية) العلوم الدقيقة (ويحاولون تفسير الظواهر الاجتماعية والانسانية تمام مثلما تفسر الظواهر الطبيعية بطريقة كمي فيتبنون نماذج رصد موضوعية عقلانية مادية ،تُسقط الأبعاد الجوانية والخاصة والكيفية للظاهرة الإنسانية ،وتهمل الدوافع والوعي وتُزال كل المسافات والثغرات والثنائيات والخصوصيات ،حتى نصل إلى مايُتصور أنه التفسير الموضوعي الكامل أو شبه الكامل للظاهرة ،أي إن دراسة سلوك الإنسان لايختلف عن دراسة سلوك اليرقات فكلاهما يُدرس من خلال سلوكه البراني وحركته الخاصة (ومع هذا ينبغي الاشارة إلى ان العلوم الطبيعية نفسها قد انسلخت عن هذه الرؤية وأصبحت أكثر احتمالية في رؤيتها أنها أخذت بالتدريج تكون لنفسها عالما خاصا بها مؤلفا من كيانات عقلية ورياضية لاتستطيع أن تجد بها وجودا في عالم الظواهر،ويبدو أن الفرض العلمي ، الذي كان يمثل الخطوة الثانية التي تلي خطوة الملاحظة والتجربة والذي كان يشير إلى إلى مدركات حسية أصبح في المنهج العلمي المعاصر فرضا صوريا لايشير إلى مدركات حسية ويأتي سابقا على الملاحظة والتجربة لكن الفرض العلمي لم يعد تعميقا لوقائع تجريبية –كما كان شائعا في الماضي_ وإنما هو نتاج العبقرية العلمية الخلاقة التي تأتي به بأي طريقة أو بأي منهج , وما يهم في الفرض العلمي مدى مقدرته على أن تجعل هذا العالم مفهوما ومعقولا أي أن الحاجة إلى حقائق صلبة أو سببي صلبة لم تعد موجودة. (

وفـي العـالم الغربـي ،اكتشـف كثيـر مـن العلمـاء سـذاجة ،بـل وتفاهـة ،الرؤيـة التجريبيـة والوضـعية) الموضـوعية /الماديـة (التـي تصـر علـى الحقـائق الصـلبة وعلـى السـببية الصـلبة والمطلقـة، والتـي ذهبـت إلـى أن قـوانين التـاريخ والمجتمـع الإنسـانيين تشـبه قـوانين الطبيعـة) بـالمعنى السـاذج لفكـرة القـانون العلمـي (وحاولـت اكتشـاف هـذه القـوانين وصـياغتها بطريقـة "علميـة" دقيقـة كمية،واصـر هـؤلاء العلمـاء الـذين رفضـوا مثـل هـذه الرؤيـة السـاذجة علـى ضـرورة التمييـز بـين العلـوم الإنسـانية والعلـوم الطبيعيـة وعلـى ضـرورة رفـض فكرةوحـدة العلـوم وواحـديتها , ومـن مظـاهر هـذه الثـورة محاولـة التمييـز بـين الشـرح مـن جهـة والفهـم) بمعنـى الـتفهم والتفسـير الاجتهـادي (مـن جهـة أخـرى .

و قـد بـدأ إسـتخدام الفعـل الإلمـاني فرشـتين (**Verstehen**) بمعنـى يفهـم أو يـتفهم فـي مقابـل إركليـرين (**Erklaren**) بمعنـى يشـرح مـن خـلال ملاحظـة الحـوادث وربطهـا بـالحوادث الأخـرى حسـب قـوانين الطبيعيـة, و ذلـك لوصـف عمليـة فهـم السـلوك الإنسـاني المركـب مـن خـلال التعـاطف و إدراك الـدوافع الإنسـانية) فـي مقابـل شـرح الأسـباب .(و قـد اسـتخدام هـذا المصـطلح كـلٌّ مـن فلهلـم ديلتـاي, وجـورج زيميـل , و كـارل ياسـبرز , و مـاكس فـايبر و آخـرون, و قـال ياسـبرز)) : إن الحيـاة النفسـية الإنسـانية لا يمكـن دراسـتها مـن الخـارج , كمـا أن الحقـائق الطبيعيـة لا يمكـن دراسـتها مـن الـداخل , الأولـى يمكـن فهمهـا مـن خـلال النفـاذ النفسـي , أمـا الثانيـة فـيمكن شـرحها مـــن خــــلال دراســـــة العلاقـــــة الموضـــــوعية الماديـــــة.((

و قـارن ياسـبرز بـين دراسـة حجـر يسـقط مـن عـل (مـن جهـة) و دراسـة علاقـة تحـارب الإنسـان فـي طفولتـه بـبعض الأمـراض النفسـية فـي شـبابه و شيخوخته) من جهة أخرى , (فالأول لا يمكن أن نراه إلا بشكل براني) في إطار قانون الجاذبية , (أما الثاني فيتطلب عمليات فكرية و عقلية أكثر تركيبـــاً.

و لكـن المصـطلح أساسـاً ارتـبط باسـم مـاكس فيبـر , فقـد بـين فيبـر الفـرق بـين الرصـد الموضـوعي المتلقـي المـادي و علميـات التفسـير الإجتهاديـة حـين قـال :إن دراسـة حظيـرة دجـاج أمـر جـدٌّ مختلـف عـن دراسـة المجتمـع الإنسـاني فعلـم اجتمـاع الـدجاج لـن يـدرس سـوى أنمـاط سـلوكية متكـررة مـن الخـارج يمكـن فهمهـا فـي إطـار المثيـر المـادي و الاسـتجابة السـلوكية, و نحـن لا نعـرف شـيئاً عـن العـالم الجـواني للـدجاج و عواطفـه و افكـاره و تأملاتـه إن كـان هنـاك مثـل هـذا العـالم , أمـا فـي حالـة المجتمـع الإنسـاني , فـنحن مـزودون بـدقر كبيـر مـن المعرفـة عـن العـالم الجـواني للإنسـان) نتوصـل اليـه مـن خـلال مغرقتنـا لـذواتنا و مـن خـلال ألفتنـا للطبيعـة البشـرية(وعـن الـدوافع الداخليـة المركبـة و عـلام المعنـى الـذي ينبـع منـه السـلوك الإنسـاني.

و لـذا إذا كـان مـن الممكـن شـرح سـلوك الـدجاج فـي إطـار شـبكة السـببية الصـلبة المطلقـة , ومـن خـلال الملاحظـة البرانيـة المباشـرة , فلـن يكـون هـذا كافيـاً بالنسـبة للبشـر , و المحاولـة الوضـعية السـلوكية لوصـف عـالم الإنسـان مـن خـلال سـلوكه البرانـي محكـوم عليهـا بالفشـل و محكـوم عليهـا بـإن تظـل سـطحية تافهـة , فهـي بإصـرارها علـى ضـرورة الشـرح البرانـي الموضـوعي ستسـتبعد قضـايا إنسـانية أساسـية مثـل انشـغال الإنسـان بمصـيره و تجربتـه فـي

الكـــون و إحساســـه بـــالاغتراب ,و لكـــن هـــذا لا يعنـــي أن الســـلوك الإنســـاني لا يخضـــع لأيـــة ســـببية , وإنمـــا يعنـــي أن الرصـــد البرانـــي لا يكفـــي , و المطلـــوب هـــو عمليـــة تفســـير مـــن خـــلال الفهـــم العميـــق و التعـــاطف المســـتمر و الإدراك المبـــدع لتركيبية الدوافع الإنسانية و غموضها.

فشـــــل النمـــــوذج المـــــادي فـــــي تفســــير ظـــــاهرة الإنســـــان

تؤكـــد العقلانيـــة الماديـــة عناصـــر التجـــانس و التكـــرار و الكـــم و الســـببية و الآليـــة، و لـــذا فهـــي تتســـم بمقـــدرة عاليـــة نوعـــا علـــى رصـــد حركـــة الأشـــياء و دراســـتها، فالعقلانيـــة الماديـــة تتحـــرك فـــي إطـــار الواحديـــة الماديـــة التـــي تخضـــع لهـــا الأشـــياء، أمـــا الإنســـان فهـــو ظـــاهرة تتجـــاوز حـــدود الواحديـــة الماديـــة. و لـــذا فـــإن ســـلوكه، ســـواء فـــي نبلـــه أو وضـــعته، فـــي بطولتـــه أو خساســـته، لـــيس ظـــاهرة ماديـــة محضـــة، و إنمـــا ظـــاهرة مركبـــة لأقصـــى حـــد:

1-فعقـــل الإنســـان لـــه مقـــدرات تتحـــدى النمـــوذج التفســـيري المـــادي، حتـــى إننـــا نجـــد عالمـــا مثـــل تشومســـكي ينكـــر تمامـــا أن عقـــل الإنســـان مجـــرد صـــفحة بيضـــاء ســـلبية (و هـــو الافتـــراض الوحيـــد المتـــاح أمـــام المـــاديين) و إنمـــــا هـــــو عقـــــل نشـــــط يحـــــوي أفكـــــارا كامنـــــة فطريـــــة. و لـــذا نجـــد أن تشومســـكي يتحـــدث عـــن معجـــزة اللغـــة باعتبارهـــا ظـــاهرة لا يمكـــن تفســـيرها فـــي إطـــار مـــادي، و إنمـــا فـــي إطـــار نمـــوذج توليـــدي يفتـــرض كمـــون المقـــدرة اللغويـــة فـــي عقـــل الطفـــل و هـــذا الكمـــون يعنـــي أن العقـــل لـــــيس مجـــــرد المـــــخ -مجموعـــــة مـــــن الخلايـــــا و الأنزيمـــــات. و جـــان بياجيـــه يقـــدم رؤيـــة توليديـــة لتطـــور الإنســـان و تطـــور إحساســـه بالزمـــان و المكـــان. و تزايـــد الاعتمـــاد علـــى النمـــاذج التوليديـــة، فـــي مقابـــل النمـــاذج التراكميـــــة، و هـــــو دليـــــل علـــــى تراجـــــع النمـــــوذج المـــــادي.

2-نـأتي إلـى مشـكلة الفكـر .يـدعي المـاديون أن الفكـر صـورة مـن صـور المـادة أو آثـار مـن آثارهـا (فالعقـل صـفحة بيضـاء تتـراكم عليهـا المعطيـات

الحسية و تتحول إلى أفكار كلية بطريقة آلية). و هي مقولة قد تبدو معقولة. و لكن تخلق من المشاكل أكثر مما تحل. و السؤال هو : لماذا يأخذ الفكر هذه الصورة بالذات؟ و لماذا تختلف أفكار شخص عن أفكار شخص آخر يعيش في الظروف نفسها؟ و هل الأفكار عصارات و أنزيمات تتحرك أم أنها شيء آخر؟ و ما علاقة المؤثر المادي بالاستجابة الفكرية أو العاطفية؟ و لنأخذ فكرة مثال السببية. المعطيات الحسية المادية غير مترابطة و لا علاقة لها بأي كليات. و مع هذا، يدرك العقل الواقع لا كواقع متناثرة و إنما كجزيئات تنضوي تحت كل متكامل، و لا يمكن أن يتم الإدراك إلا بهذه الطريقة. و لذا نجد الماديين) في عصر ما بعد الحداثة (ينكرون تماما فكرة الكل، و يعلن نيتشه موت الإله الذي يعني في الواقع نهاية الكل. و هجوم الماديين و الطبيعيين على الكل أمر طبيعي، ففكرة الكل تذكرنا بمعجزة الإنسان الذي يتجاوز النظام الطبيعي و حركة الأنزيمات و الذرات و الأرقام. ومن ثم، فإنها تخلق ثنائية راديكالية تستدعي مرجعية متجاوزة للنظام الطبيعي و هي الإله. فالكل يؤكد تجاوز الإنسان، و تجاوز الإنسان يؤكد وجود الإله كمقولة تفسيرية معقولة. و لذا لابد و أن تهاجم هذه الفلسفة فكرة الحل حتى يعود الإنسان إلى الطبيعة و يُستوعب فيها. و هكذا بدأت المادية بمحاولة تحطيم خرافة الميتافيزيقا، و انتهت بالهجوم على فكرة الحقيقة ذاتها.

3- و هناك أخيرا حس الإنسان الخلقي و الديني، و حسه الجمالي، و قلقه، و تساؤله عن الأسئلة النهائية الكبرى، و هي أحاسيس لا يمكن

تفسيرها على أساس مادي، فهو أمر أكثر صعوبة من تفسير وجود الأفكار. و كما ينتهي الفكر المادي بإنكار الفكر و الكل، فهو ينكر الحس الخلقي و الجمالي و يسقط الأسئلة النهائية .فعبارات مثل القتل شر و هذه اللوحة جميلة و قلق الإنسان بخصوص مصيره في الكون لا معنى لها من منظور مادي، تماما مثل عبارة الله رحيم أو الله موجود، فكلها عبارات لا يمكن إثباتها أو دحضها من خلال المنهج العلمي المادي.

4-و الفلسفات المادية تدور في إطار المرجعية المادية، و لذا فإنها ترسم صورة واحدية للإنسان، إما باعتباره شخصية صراعية دموية قادر على خرق كل الحدود و على إعلاء إرادته و توظيف قوانين الحركة لحسابه، أو باعتباره شخصية قادرة على التكيف مع الواقع و الخضوع لقوانين الحركة. و هذه صورة مستقطبة غير حقيقية :

أ) فالصورة الأولى تفشل في رصد تلك الجوانب النبيلة في الإنسان مثل مقدرته على التضحية بنفسه من أجل وطنه أو من أجل أبيه أو أمه، و مقدرته على ضبط نفسه من أجل مثل عليا.

ب) الصورة الثانية تؤكد أن الإنسان غير قادر على الثورة و التجاوز. و بالفعل، يلاحظ في العصر الحديث هيمنة نظم سياسية تسيطر عليها رؤى تكنوقراطية محافظة. و مع هذا، لم تنجح المادية تماما في قمع الإنسان و تسويته بالأمر الواقع. فالإنسان لا يزال غير راض، قلقا إن لم يعبر قلقه عن نفسه من خلال الثورة الناضجة فهو يعبر عن القلق

نفسه بأشكال مرضية.

5- المادية تفشل في تفسير إصرار الإنسان على أن يجد معنى في الكون و مركزا له، و حينما لا يجد معنى له فإنه لا يستمر في الإنتاج المادي مثل الحيوان الأعجم، و إنما يتفسخ و يصبح عدميا و يتعاطى المخدرات و ينتحر و يرتكب الجرائم دون سبب مادي واضح. و قضية المعنى تزداد حدة مع تزايد إشباع الجانب المادي في الإنسان، فكأن إنسانية الإنسان لصيقة بشيء آخر غير مادي. و البحث عن المعنى قد عبر عن نفسه على هيأة فنون و عقائد. و كما يقول علي عزت بيجوفيتش فإن) الدين و الفن مرتبطان بالإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض، أما العلم المادي فهو حديث، و فشل العلم المادي الذي يدور في إطار نماذج مادية في تفسير الإنسان و في التحكم فيه هو دليل فشله في إدراك الظاهرة الإنسانية و إدراك أن الحلول التي يأتي بها ناقصة.(

المســـــــاواة والتســـــــوية–

إذا تــم رصــد الإنســان بشــكل موضــوعي ، طبيعــى/ مــادي، فــي إطــار المرجعيــة الماديــة الكامنــة فإنــه ســيتم إســتبعاد مفهــوم الإنســانية المشــتركة والجــوهر الإنســاني ، وهــى أمــور متجــاوزة لعــالم المــادة . وبــدلاً مــن ذلــك ســـــيقوم الراصــــــد العلمـــــــى بمـــــا يلـــــي:

أ (ســيتم رصــد الفــروق الماديــة بــين الشــعوب والأفــراد بكــل دقــة وعنايــة ، كمــا ســيتم تســجيل الاختلافــات فــى الــذكاء والمقــدرة العضــلية بكــل دقــة وعنايــة ، كمــا ســيتم تســجيل الأختلافــات فــى الــذكاء والمقــدرة العضــلية والفــروق الناجمــة غــن الأختلافــات فــى البيئــة ، وســيتم كــذلك تســجيل الأختلافــات التشــريحية بــين الرجــل والمــرأة ، وبــين الأقويــاء والضــعفاء ، وهــذا تعبيــر عــن النزعــة نحــو تأليــه الكــون فــى الــنظم الماديــة . ولــذا لــيس مــن قبيــل الصــدفة أن عنصــرية التفــاوت الغربيــة ، بمــا فــى ذلــك النازيــة والصــهيونية ، أســتندت إلــى نظريــات ماديــة عــن الأختلافــات بــين الشــعوب ، وتــم اســتبعاد الشــعوب وإبــادة الملايــين وتــدمير المعمــورة باســم هــذه المنظومــة العلميــة التــى لا تعــرف الرحمــة أو التــراحم ، ولا تعــرف الضــحك أو البكــاء ولا الخيــر أو الشــر ، فهــى لا تعــرف ســوى القــوة والعنــف والبقــاء والهــلاك . وهــذه هــى عنصــرية التفــاوت وعــدم المســاواة.

ب (يمكــن للرصــد العلمــى أن يتجاهــل كــل هــذه الفــروق ويركــز علــى

الصفات المادية المشتركة بين كل البشر ووظائفهم البيولوجية (التعبير عن النزعة نحو إنكار الكون). ولكن هذه الصفات المادية العامة المشتركة بين البشر هى ذاتها الصفات التى تربط بين البشر والقردة العليا ، على سبيل المثال ، وتسوي بينهم، وهذه عنصرية التسوية . فالرؤية المادية العلمية لا ترصد سوى الاختلافات المادية الواضحة أو الصفات العامة المادية المشتركة ، أى إنها رؤية تتأرجح وبحدة بين التفتت الذرى والوحدة الكونية العضوية . وفى كلتا الحالتين ، يتم استبعاد مفهوم الإنسانية المشتركة . وعنصرية التفاوت وعدم المساواة أمر معروف لدينا ، تم دراسته وتمحيصه ، ولكن عنصرية التسوية هى أمر جديد تماماً ، فهى عنصرية ما بعد الحداثة ، وهذا ما سنركز عليه فى بقية هذا الجزء.

أما المساواة ، فهى أن يتعادل شىء ما وآخر فى ((بعض)) الوجوه وحسب ، أما التسوية فهى إحداث التساوى بين شيئين فى ((كل)) الوجوه . والمساواة بين البشر هى مساواة بينهم فى الأساسيات الإنسانية ، أي فيما يميز الإنسان كإنسان ، أما التسوية فهي تسوية بين كل المخلوقات ، البشر والحيوانات والجمادات ، فى كل هذه الوجوه تقريباً . وكل من المساواة والتسوية نتاج عملية تجريدية ، ولكن المساواة تتم فى إطار المرجعية المتجاوزة والإيمان بأن الإنسان مقولة مستقلة عن عالم الطبيعة / المادة برغم من وجوده فيها . ولذا فإن التجريد يأخذ شكل نزع السمات الشخصية والفردية عن البشر بحيث تظهر السمات التي تميزهم بوصفهم بشراً ، والحدود التى تفصلهم عن

بقيـــة الكائنـــات فتتضـــح تركيبـــة الإنســـان وتميـــزه عـــن عـــالم الطبيعـــة / المـــادة .

أمـــا التســـوية ، فهـــى عمليـــة تـــتم فـــى إطـــار الطبيعـــة / المـــادة ، فيـــتم نـــزع كـــل السـمات غيـــر الماديـــة عـــن الإنســـان لتظهـــر الســـمات الماديـــة المشـــتركة بينـــه وبـــين بقيـــة الكائنـــات، ومـــن ثـــم تنـــزع عـــن الإنســـان كـــل قداســـة وخصوصـــية ومركزيـــة وتركيبيـــة ، وتســـقط حـــدوده الإنســـانية ، ليصـــبح الإنســـان مجـــرد مـــادة ، شـــيئاً بـــين الأشـــياء يتســـاوى معهـــا ويُســـوَّى بهـــا.

والمســـاواة ، لهـــذا الســـبب ، مفهـــوم إنســـانى أخلاقـــى دينـــى يســـتند إلـــى اســـاس غيـــر مـــادي ، مرجعيـــة متجـــاوزة ، أمـــا مـــا يســـمى بالمســـاواة فـــى العصـــر الحـــديث ، فهـــو فـــى واقـــع الأمـــر تســـوية ، تـــتم فـــى إطـــار مرجعيـــة ماديـــة كامنـــة، أي إنهـــا عمليـــة تفكيـــك للإنســـان وتـــدمير وتقـــويض لـــه بوصـــفه كيانـــاً مســـتقلاً عـــن الطبيعـــة /المـــادة. وقـــد تـــتم مســـاواة الإنســـان بالإنســـان الآخـــر ، ولكـــن تتســـم تســـويتهما بالإنســـان الطبيعـــي المـــادي الـــذى يتســـاوى فـــى كـــل الوجـــــــوه مـــــــع الكائنـــــــات الطبيعيـــــــة الأخـــــــرى.

وفـــى تصـــورنا ، فـــإن مفهـــوم المســـاواة فـــى الغـــرب كـــان يـــدور فـــى إطـــار المرجعيـــة المتجـــاوزة ، وكـــان ترحمتـــه علمانيـــة ، واعيـــة أو غيـــر واعيـــة ، للفكـــرة التوحيديـــة المتمثلـــة فـــى قصـــة الخلـــق : خلـــق الله آدم ، ونفـــخ فيـــه مـــن روحـــه ، وعلمـــه الأســـماء كلهـــا ، وقـــد جئنـــا كلنـــا مـــن صـــلب آدم. فثمـــة مســـاواة مبدئيـــة بـــين البشـــر فـــى الأساســـيات الإنســـانية ، أي فيمـــا يميـــزهم بشـــراً ، فـــى جـــوهرهم الإنســـانى الـــذي يفصـــلهم عـــن عـــالم الطبيعـــة/ المـــادة.

وتتحقـــق إنســـانية الإنســـان بمقـــدار تجـــاوزه لكثيـــر مـــن دوافعـــه الطبيعيـــة والماديـــة ، وبمقـــدار إعلائـــه لهـــذه الـــدوافع وتعبيـــره عنهـــا مـــن خـــلال أشـــكال

إنســـانية متميـــزة عـــن الأشـــكال الطبيعيـــة المتاحـــة للحيوانـــات ، إذ ثمـــة أخـــتلاف بينـــه وبـــين الطبيعـــة /المـــادة بســـبب الثغـــرة أو المســـافة التـــى تفصـــل بينهمـــا. وفـــى هـــذا الإطـــار ، تصـــبح المســـاواة شـــكلاً مـــن أشـــكال تحقيـــق الإنســـانية وتحقـــق جـــوهر الإنســـان ، فهـــي شـــكل مـــن أشـــكال الاجتمـــاع البشـــري وتحقيـــق لقيمـــة مطلقـــة متجـــاوزة للمـــادة والطبيعـــة ، بـــل ومتجـــاوزة لـــدوافع الإنســـان الماديـــة والجســـدية ، أي تجـــاوز لمـــا يســـمى الإنســـان الطبيعـــى (المـــادي) واقتـــراب لمـــا يمكـــن أن نســـميه الإنســـان الربـــاني الـــذي يحـــوي داخلـــه عناصـــر لا يمكـــن ردهـــا إلـــى النظـــام الطبيعـــى ، أو لمـــا يمكـــن أن نســـميه الإنســـان فـــى المنظـــور الهيومـــانى والـــذي لا يمكـــن أن يُـــرد إلـــى الطبيعـــــــــــــــــــــــــــــة /المـــــــــــــــــــــــــــــادة.

ولـــو قلنـــا)) : كلكـــم لآدم وآدم مـــن تـــراب ((فـــي إطـــار المرجعيـــة المتجـــاوزة ، فـــإن آدم هنـــا يحـــوى داخلـــه قبســـاً مـــن الله ســـبحانه وتعـــالى تجعلـــه مســـتخلفاً فـــى الأرض، أو يحـــوى داخلـــه ذاتـــه التـــى تـــرفض الإذعـــان للمـــادة ، وبـــذا يصـــبح كائنـــاً حـــراً مســـؤولاً عـــن أفعالـــه ، لـــه هويـــة مســـتقلة ، وإرادة مســـتقلة ، ومقـــدرة علـــى إدراك الخيـــر والشـــر ومـــا ينفـــع ومـــا يضـــر ، ولا يمكـــن تفكيكـــه أو تقويضـــه . أمـــا إذا قلنـــا العبـــارة نفســـها فـــي إطـــار المرجعيـــة الماديـــة الكامنـــة ، فإننـــا نـــرى آدم هـــو تـــراب وحســـب ، ويمكـــن أن يُـــردَّ أمـــا للتـــراب فيســـوى بالطبيعـــة /المـــادة، فهـــو الإنســـان الطبيعـــى الـــذي يمكـــن تفكيكـــه وتقويضـــه ورده إلـــى الطبيعـــة/ المـــادة ولا وجـــود مســـتقل لـــه عنهـــا ، تســـري عليـــه القـــوانين الطبيعيـــة ســـريانها علـــى القـــرود والفـــراش والأشـــجار.

ولذا فإن التسوية تعنى اقتراباً متزايداً من حالة الطبيعة وتشكل هجوماً شرساً على الطبيعة البشرية وعلى كل المعايير أو الموازين التي تفترض وجود مرجعية إنسانية متجاوزة ، كما تأخذ شكل الابتعاد المتزايد عن الحالة الإنسانية والجوهر الإنسانى والاقتراب المتزايد من الفكرة المادية الطبيعية . فالتسوية لا تتم من خلال اقتراب البشر من خصوصيتهم الإنسانية وإنما تكمن فى مقدار تخليهم عن هذه الخصوصية وذوبانهم فى عالم الطبيعة العام حتى يصبح الإنسان إنساناً طبيعياً ، ثم يتطور هذا الإنسان ويزداد تخليه عن أي خصوصية إلى أن يصبح طبيعة/مادة محضاً ، خاضعاً تماماً لقوانين الحركة. ويلاحظ أن الحركة هنا هي الحركة العامة للنمط الحلولي الكموني الواحدي والتى تأخذ شكل التخلي التدريجي عن عبء الهوية الإنسانية ، بما يحمل من تكليف ومسؤولية وإحساس بالحدود، والعودة المتزايدة إلى الحالة الرحمية حيث لا مسؤولية ولا هوية ولا حدود، فهو إنتقال من المرجعية المتجاوزة والمركزية الإنسانية إلى المرجعية المادية الكامنة وإزاحة الإنسان عن المركز ثم إلى حالة السيولة الشاملة واختفاء كل المرجعيات.

ويلاحظ أنه ، على حين أن الأطار التوحيدى والهيومانى يفترض أن المساواة الكاملة مثل أعلى لا يتحقق ، لأن البشر يتفاوتون فى مقدرتهم على تحقيق الحالة الإنسانية ، فإن الإطار الحلولي الكموني الواحدي يفترض أنه يمكن الوصول إلى هذا التساوي الكامل بل والمطلق . ولكن المساواة المطلقة ، أي التسوية ، لو تحققت فإنها هى ايضاً

لحظة الهيولى والعدم المطلق . إذ يختفي الإنسان كياناً مستقلاً له قيمته ومركزيته ، ويلتحم بالسيولة الكونية الرحمية الحلولية الكبرى ، إذ يصبح الإنسان إنساناً طبيعياً تماماً خاضعاً لقوانين الطبيعة ولا يختلف عن الطيور والقرود واليرقات.

ويخلط معظم الدارسين بين النمطين : المساواة فى إطار المرجعية المتجاوزة (والتوحيد) والتسوية الحلولية الكمونية . ويعود ذلك لأسباب ، من بينها أنه عادةً ما يتم فصل المؤشر والدال فى العلوم الإنسانية عن سياقه ويصبح دالاً يشير إلى مدلول واحد. ولذا ، فإنه إذا وردت كلمة مساواة مقصوداً بها المساواة الإنسانية فى نص يدور فى إطار المرجعية المتجاوزة توحيدي وإنساني هيوماني، فإن الدارسين عادةً ما يتصورون أن الكلمة تشير إلى مدلول واحد فيخلطون بينهما ، برغم أختلاف الدلالات باختلاف السياق . ومما يساعد على هذا الخلط أنه في عصر النهضة فى الغرب، ظهرت رؤيتان إلحاديتان : واحدة متمركزة حول الإنسان بوصفه كائناً مركباً حراً مستقلاً عن الطبيعة)) التمركز حول الذات ((، والأخرى متمركزة حول الطبيعة/المادة) التمركز حول الموضوع .(وقد تم تصنيفهما على أنهما رؤية واحدة ، مع أنهما مختلفتان تماماً .ففي إطار الرؤية المتمركزة حول الإنسان، يصبح الإنسان مركزاً للكون ، خليفة للإله أو بديلاً لع ، وبشكل مرجعية نهائية متجاوزة نوعاً ما لعالم المادة ، فيظل هناك شكل من اشكال الهرمية والثنائية) أعلى/اسفل- إنسان/طبيعة – ذات/موضوع (وهى بقايا الرؤية

التوحيدية بعد علمنتها. ولكن نطاق الرؤية الحلولية الكمونية الواحدية المادية يتسع ويزداد تغلغلها وهيمنتها إلى أن تنحسر الرؤية الإنسانية الهيومانية تماماً، ويتم رد الإنسان إلى عالم الطبيعة والمادة، وتظهر مركزية الطبيعة/المادة والمرجعية المادية الكامنة. ويستمر اتساع نطاق الواحدية المادية إلى أن يتم نصفية أي مطلق أو معيار أو مرجعية متجاوزة أو نهائية (إلهية كانت أم إنسانية) لنصل إلى عالم لا مركز له) عالم ما بعد الحداثة (يتساوى فيه الإنسان تماماً بالأشياء،ويتم التسوية بينهما إذ يتم الهجوم على أى مركزية أو معيارية.

الهجـــــــــوم علــــــــــى الطبيعـــــــــة البشـــــــــرية

تنكــر الفلســفة الماديــة وجــود أي جــوهر مســتقل عــن حركــة المــادة فهــي تــدور فــي إطــار المرجعيــة الماديــة الكامنــة ووحــدة الوجــود الماديــة ومــن ثــم لايحقــق أي عنصــر فــي الكــون تجــاوزا بمــا فــي ذلــك الإنســان والفلســفة العقلانيــة الماديــة حينمــا تتعامــل مــع الإنســان تنظــر إليــه فــي إطــار نمــوذج تحليلــي مــادي/طبيعي يســتبعد كــل خصائصــه الغيــر طبيعيــة مثــل تركيبتــه ومقدرتــه علــى التجــاوز واســقلاله عــن المقــولات المادية/الطبيعيــة ثــم تقــوم بتفكيكــه إلــى عناصــره الأوليــة الماديــة" الحقيقيــة "وتــرده فــي كليتــه إلــى مبــدأ مــادي واحــد وتقــوم بتعمــيم المبــادئ العلميــة والرياضــيةعلى جميــع الظــواهر بمــا ذلــك الإنســان ومــن هنــا الهجــوم المــادي الحتمــي الشــرس علــى الطبيعــة البشــرية والجــوهر الإنســاني أي علــى تلــك الســمات التــي تميــز الإنســان كإنســان مقدرتــه علــى التجــاوز أو انشــغاله بالأســئلة النهائيــة الكبــرى أو اســتقلاله عــن الطبيعــة /المــادة فمهــوم الطبيعــة البشــرية يعنــي أن ثمــة مقولــة مســتقلة داخــل النظــام الطبيعــي المــادي تســمى الإنســان تستعصــي علــى التفســيرات الطبيعية/الماديــة وهــذا يمثــل فضــيحة معرفيــة إذ إن ثنائيــة الإنســان /الالــه أو الخــالق /المخلــوق ولــذا لابــد وأن تســتوعب الطبيعــة البشــرية تمامــا فــي النظــام الطبيعــي ولابــد وأن يختفــي الإنســان وان تهــيمن المرجعيــة الكامنــة الواحديــة الماديــة وان تــزول كــل الثنائيــات او تحيــد بحيــــث تصــــبح متوازنــــه ومتعادلــــة تمامــــا.

ومــع هــذا يحــدث احيانــا فــي داخــل المنظومــة الواحديــة الماديــة ان يصــبح الإنســـان هـــو مركـــز الكـــون المتجـــاوز لـــه فتظهـــر ثنائيـــة الإنســـان/ الطبيعيــة وهــذا هــو اســاس الفكــر الإنســاني الهيومــاني التمركــز حــول الــذات ومرجعيــة متجــاوزة فــي إطــار مــادي ولكــن مثــل هــذه الثنائيــة واهيــة غيــر حقيقيــة فالفلســفة الماديــة كمــا اســلفنا تنكــر وجــود أي جوهرمســتقل عــن حركــة المــادة ومــن ثــم لايمكــن لأي عنصــر بمــا فــي ذلــك الإنســان أن يحقــق تجــاوزا للنظــام المــادي الطبيعــي ولــذا لابــد أن تســري القــوانين الواحديــة الماديــة فــي نهايــة الأمــر وفــي التحليــل الأخيرعلــى الإنســان ســريانهاعلى الطبيعــة ,فيصــبح الإنســان بوعيــه و فهمــه وحســه الخلقــي جــزءاً لا يتجــزأ مــن حركــة المــادة خاضــعاً لهــا , وتصــبح هــي المركــز ,و ينتصــر الموضــوع علــى الــذات ويــذوب الإنســان ويختفــي و يفقــد مقدرتــه علــى التجــاوز ,و يُســتوعب تمامــاً فــي لنظــام الطبيعــي , فمــوت الإنســان هــو نتيجــة حتميــة للرؤية المادية و موت الإله,

وسنحاول أن نضرب بعض الأمثلة المعاصرة على هذا الهجوم الشرس على الإنسان وطبيعة البشرية:

1- وحدة العلوم

لنأخذ الحوار الدائر منذ عصر النهضة ، والذي لم ينته بعد، عن وحدة العلوم. فهناك من يرى أن هناك علوماً وحسب ، يمكن عن طريقها دراسة كل من الإنسان والطبيعة دون تمييز أو تفريق بين علوم طبيعية وأخرى إنسانية ، وهؤلاء يرون أن كل العلوم تهتم بوقائع لا تختلف فى حالة الإنسان عن حالة الحيوان ، ولكن هناك أيضاً من يرى أن العلوم الإنسانية في تصورهم تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية . فالواقعة فى السياق الإنساني ينتجها موجود إنساني له ظاهر وباطن، وله معايير وقيم وأهداف ومقاصد ومشاعر وهواجس ، أما وقائع العلوم الطبيعية فهى مجرد حركة فى الزمان والمكان ولها وجود حسى وملموس. والوقائع الإنسانية ليست ماثلة أمامنا بشكل مباشر ، فهى مرتبطة بعالم الدوافع التى تحركها، والرموز التى تعبر عنها ، وحتى يمكننا الوصول إليها لا بد وأن نكد ونتعب ونفسر ونتعاطف مع الإنسان ، أما الوقائع الطبيعية فهى وقائع مباشرة تخضع للإدراك الحسي ، ولذا فالوقائع الإنسانية تخضع للفهم الذى ينفذ إلى المعانى الباطنة داخل الأشياء، أما الوقائع الطبيعية تخضع للتفسير . إن الوقائع الإنسانية ذات طبيعة كيفية خالصة، أما الوقائع الطبيعية فيمكن التعبير عنها بلغة الكم.

ونحـــن لـــو دققنـــا النظـــر لوجـــدنا أن الصـــراع الـــدائر هنـــا هـــو صـــراع بـــين المـــرجعيتين ، المرجعيـــة المتجـــاوزة والمرجعيـــة الكامنـــة، يأخـــذ شـــكل صـــراع بـــين دعـــاة الإيمـــان بالإنســـان المتجـــاوز للطبيعـــة ، الـــذي يســـتند وجـــوده إلـــى نقطـــة خـــارج النظـــام الطبيعـــي ، مـــن جهـــة ومـــن جهـــة أخـــرى دعـــاة الإيمـــان بالطبيعـــة الماديـــة التـــى تحـــوي داخلهـــا مـــا يكفـــي لتفســـيرها والـــذين يســـاوون بـــين الإنســـان والكائنـــات الطبيعيـــة ويســـوون بينهمـــا فيســـقطون الإنســـان كمقولـــة مســـتقلة فـــى النظـــام الطبيعـــي، ومـــن هنـــا فـــنحن نصـــفهم بالعـــداء للإنســـان) بالإنجليزيـة : أنتـى هيومـانيزم . (anti- humanisim فـــدعاة الإيمـــان بالطبيعـــة يـــرون أن القـــوانين العامـــة للعـــالم هـــى القـــوانين الكامنـــة فـــى المـــادة والتـــى تســـرى علـــى كـــلٍّ مـــن الطبيعـــة والإنســـان دون أي تفرقـــة أو تمييـــز ، وأننـــا ســـيزداد تحكمنـــا فـــى أنفســـنا وفـــي الطبيعـــة ، وأن المعرفـــة هـــى تزايـــد معرفتنـــا بقـــوانين الحركـــة الماديـــة العامـــة ، ذلـــك لأن المنحنـــى الخـــاص للظـــاهرة الإنســـانية ومـــا يميـــز الإنســـان كإنســـان (جـــوهره الإنســـانى وتركيبيتـــه ومقدرتـــه علـــى التجـــاوز) أمـــور لا تهـــم ، ولهـــذا ينـــادي دعـــاة وحـــدة العلـــوم بأنـــه مـــن الممكـــن أدخـــال كـــل شـــيء فـــى شـــبكة الســـببية الصـــلبة والمطلقـــة ودراســـته مـــن خـــلال النمـــاذج الرياضـــية التـــى تتجـــاوز المرجعيـــة المتجـــاوزة، ربانيـــة كانـــت أم إنســـانية. قـــد نخطـــيء فـــى محاولتنـــا ولكننـــا نعيـــد الكـــرة وتـــزداد معرفتنـــا ويـــزداد تحكمنـــا، وتـــدار التجـــارب فـــى إطـــار محايـــد خـــالٍ مـــن أي قـــيم إنســـانية أو أخلاقيـــة تضـــع حـــدوداً علـــى التجريـــب ، أو تطـــرح أي غائيـــة خاصـــة بالإنســـان، او تمنحـــه أي مركزيـــة،

فكـــل الأمـــور متســـاوية ، ولـــذا لابـــد وأن يخضـــع كـــل شـــيء للتجريـــب الـــذي يســـتبعد أي معـــايير غيـــر علميـــة وغيـــر ماديـــة مثـــل الســـمات البشـــرية ، أو القـــيم الأخلاقيـــة ، أو الطبيعـــة البشـــرية ، ومـــن ثـــم يختفـــي الإنســـان ويســـوى بـــالحيوان ، وتختفـــى معـــه العلـــوم الإنســـانية وتصـــبح كـــل العلـــوم طبيعيـــة ، تـــدرس قـــوانين المـــادة كمـــا يطالـــب دعـــاة وحـــدة العلـــوم.

وأنطلاقـــاً مـــن مفهـــوم وحـــدة العلـــوم ، أو واحـــديتها الماديـــة، يبـــدأ تأســـيس علـــوم طبيعيـــة تســـتبعد الجـــوهر الإنســـاني ومفهـــوم الطبيعـــة البشـــرية . وممـــا لاشـــك فيـــه أنـــه إن اراد الإنســـان أن يبنـــي جســـراً فإنـــه لا بـــد أن يعـــرف طبيعـــة المـــواد التـــى ســـيبنى بهـــا هـــذا الجســـر، ، وطريقـــة تنظيمهـــا وتركيبهـــا وخواصـــها... إلـــخ. ومـــن دون هـــذه المعرفـــة ، لايمكـــن ان يـــدعى أنـــه علـــى ((علـــم)) بالجســـر. ولتأســـيس علـــم الحيـــوان ، مـــثلاً ، لابـــد أن نعـــرف نطـــاق هـــذا العلـــم مـــن خـــلال تعريـــف الحيـــوان مقابـــل الإنســـان والنبـــات. وحتـــى فـــى العلـــوم الغيـــر دقيقـــة، مثـــل النقـــد الأدبـــي وتـــاريخ الفنـــون ، لابـــد تـــتم الأجابـــة عـــن ســـؤال مـــا الأدب؟ والســـؤال الـــذي لابـــد أن نطرحـــه هـــو : هـــل يمكـــن تأســـيس علـــوم إنســـانية دون معرفـــة الإنســـان؟ هـــذا مـــا حـــدث بالفعـــل فـــي العلـــوم الإنســـانية الغربيـــة إذا اختفـــت الإشـــارات إلـــى الطبيعـــة البشـــرية تمامـــاً فيهـــا ، ولا يمكـــن الحـــوار إلا مـــن خـــلال المؤشـــرات الكميـــة والجـــداول والقـــرائن الماديـــة المباشـــرة.

وحينمـــا ترســـم هـــذه العلـــوم صـــورة الإنســـان ، فإنـــه يكـــون إنســـاناً طبيعيـــاً

وظيفياً ذا بُعد واحد ، آلياً يتحرك في إطار الدوافع والمثيرات. ويُقسم إلى الذات والذات العليا الهو، ويدفعه الإيروس والثاناتوس) فرويد (أو النماذج الأصلية) يونج .(وكما يقول علي عزت بيجوفيتش، فلقد تم طرد النفس من علم النفس ، وفي الأقتصاد نجد الإنسان مجموعة من المصالح الإقتصادية، ، وفي علم الأخلاق هو كيان تحركه الرغبة في البقاء المادي وتحقيق الملصلحة المادية . أما في علم الأجتماع، فقد اعلن دوركهايم أن الظواهر الأجتماعية مستقلة عن الأفراد، وتتمتع بسلطة قاهرة تفرض نفسها على الأفراد عن طريق الإكراه، وأن الضمير الفردي صدى للضمير الجمعي. فعندما يتكلم ضميرنا فمعنى ذلك أن المجتمع هو الذي يتكلم فينا، فالفرد ((ذرة إجتماعية)) يدرسها علم الاجتماع الذي كان ينوى كونت تسميته الفيزياء الأجتماعية! اما الأنثربولوجيا) علم الإنسان (!فهو يؤكد أن الإنسان ليس له طبيعة وإنما له تاريخ. وإن كانت لديه خاصيات عند الولادة . فهي مجرد استعدادات شفافة لا تصمد أمام مؤثرات المحيط القادر على تشكيل الإنسان كيفما شاء. ففي الإنسان لا توجد دوافع نفسية ثابتة اللهم إلا دافع الجنس والأكل ، أما دافع المعرفة والعاطفة والتملك فهي في نظر بعض الدراسات الأنثربولوجية متغيرة تظهر وتختفي بحسب عوامل البيئة . كما سمعت النظريات التاريخية (المادية) إلى بيان أن الإنسان كائن تشكَّل عبر التاريخ وعبر علاقاته مع الطبيعة ومع الآخرين وأنه قبل ذلك لم يكن إنساناً ، وليس في طبيعة الإنسان خاصيات أولية مشتركة بين الناس لأنه ليس للإنسان طبيعة. فالإنسان هو مجموع علاقاته الإنتاجية

وهــو لحظــة مــن لحظــات جــدل الطبيعــة، هنــا تنتفــى الــذات الفرديــة لتخلــي مكانهـــا للـــذات الجماعيـــة وتتراجـــع الـــذات الواقعيـــة الطامحـــة لحســـاب الـــذات التاريخيـــة الخاضـــعة للحتميـــة التاريخيـــة المتحكمـــة فـــى مســـار التـــاريخ. وحتـــى فـــى عـــالم الأدب ، الملجـــأ الأخيـــر للـــنفس البشـــرية ، ظهـــرت الفلســـفات البنيويـــة والتفكيكيـــة التـــى تحـــاول أن تطهـــر ذاتهـــا مـــن آخـــر المطلقـــات الإنســـانية (أي الطبيعـــة البشـــرية) ، ولـــذا يتحـــول النقـــد الأدبـي إلـى محاولـة لرصـد أنمـاط وبنـى وألعـاب لغويـة ، تـدخل فيهـا الـذات الإنســـــانية وتصـــــبح خاضـــــعة لهـــــا.

إن العلـــوم التـــي تـــدعى أنهـــا إنســـانية وتـــدور فـــى نطـــاق المرجعيـــة الماديـــة الكامنـــة تنطلـــق مـــن الإيمـــان بأنـــه لا توجـــد عناصـــر إنســـانية عالميـــة أو طبيعـــة بشـــرية ثابتـــة أو مســـتقرة خاصـــة ، فمـــا يوجـــد هـــو ممارســـات وعقائـــد لا يبتنظمهـا إطـار . وكمـا يقـول فوكـوه)) : لا يوجـد ذات إنسـانية ثابتـة فـى التـاريخ ، ولا يوجـد حالـة طبيعيـة إنسـانية، ولا يوجـد شـيء فـى الإنسـان (حتـى جسـده) ثابـت بمـا فيـه الكفايـة يصـلح أساسـاً ليتعـرف الإنسـان علـى ذاتـه ولـيفهم الآخـرين .((فكـل شـيء فـى ذلـك الإنسـان حـادث . بـل عرضـي وطـاريء، ومـن ثـم محتمـل الوقـوع والـزوال. ولا مهـرب مـن إدراكنـا لهـذه الحقيقـة) ولحقيقـة القـوة والهيمنـة، مطلـق فوكـوه الوحيـد (، أي إن كـل الأمـور ، بمـا فـي ذلـك الإنسـان –كمـا يعـرف الجميـع الآن فـى الغـرب– ماديـة ونسـبية وخاضـعة لـذلك القـانون الواحـدي العـام الـذى يسـرى علـى الطبيعـة والإنسـان.هذا يعنـي فـى واقـع الأمـر أنـه لا توجـد

معيارية إنسانية ، أي لا توجد سوى معيارية موضوعية شيئية .إن ما يحدث هنا هو إلغاء ثنائية الإنسان/الطبيعة، أى ثنائية الجنس البشرى/ الأشياء، ليسود عالم الكم والأرقام والنماذج الاختزالية البسيطة التى قد تعطي من يسخدمها راحة كبيرة ومقدرة على الإنجاز ، ولكنها تفكك الإنسان تماما ثم تقتله. وليس من قبيل الصدفة أن الفلسفة السائدة الآن فى الغرب هى الفلسفة التفكيكية التى تهدف إلى تصفية كل الثنائيات ، وعلى كلٍّ فإن هو ميرات الاستنارو المظلمة والمضيئة.

ولكن هناك النموذج الآخر الذي يرى الإنسان ظاهرة منفردة متجاوزة) ربانية (لايمكن مساواته أو تسويته بالكائنات الطبيعية. ولا شك أن الإنسان يحوي كثيراً من العناصر الطبيعية، وهى عناصر لابد أن تخضع بشكلٍ ما ، وفي بعض جوانبها . إلى التجريب الطبيعى، وتدخل شبكة السببية الصلبة. لكن الإنسان يظل يملك ما يتحدى التجريب وما لا يمكن معرفته ولا يمكن استيعابه داخل هذه لالشبكة ، إذ إن أي محاولة من هذا النوع لابد أن تبوء بالفشل . ولذا ، فإن أكثر النماذج التفسيرية كفاءة ، حسب هذا التصور، هي النماذج المنفتحة الفضفاضة التى تعترف بثنائية الإنسان والطبيعة ، وبأن الطبيعة البشرية والقيم الأخلاقية والغائية النابعة من مركزية هذا الإنسان هى المرجعية النهائية لدراسة ظاهرة الإنسان، وأن هناك ما يمكن معرفته وإدخاله في شبكة السببية الصلبة والمطلقة، وذلك مع تأكيدها بأن هناك ايضاً ما لايمكن معرفته أو اصطياده، ومن ثم فإن الوصول إلى تفسيرات كاملة وحلول

نهائيـــة أمـــر مســـتحيل . ولـــذا، فقـــد أقتـــرح هـــؤلاء أن الإنســـان لا يُشـــرح ، ولا يُفســـر كمـــا نفعـــل مـــع الظـــواهر الطبيعيـــة، وإنمـــا يُفهـــم ويُـــؤول ، ومـــن هنـــا ظهـــرت مدرســـة الهرمنيوطيقـــا والتأويـــل التـــى تنظـــر إلـــى الإنســـان باعتبـــاره ظـــاهرة مركبـــة تستعصـــي علـــى التفســـير مـــن خـــلال النمـــاذج الطبيعيـــة الماديـــة .

ويقـــول دعـــاة هـــذا النمـــوذج الـــذي يـــدور فـــي إطـــار المرجعيـــة المتجـــاوزة ، إن الـــنظم المعرفيـــة الماديـــة نظـــم واحديـــة تســـعى إلـــى تفســـير كـــل الظـــواهر تفســـيراً كـــاملاً ن ولـــذا فهـــي تســـقط فـــى حلـــم نهايـــة التـــاريخ ، حيـــث يصـــبح مـــا كـــان مجهـــولاً معروفـــاً . ومـــن ثـــم فهـــى تقـــوم بتفكيـــك الإنســـان وتســـويته بكـــل الأشـــياء الأخـــرى ومـــن هنـــا ، فـــإن نهايـــة التـــاريخ تأخـــذ دائمـــاً شـــكل يوتوبيـــا تكنوقراطيـــة تســـير حســـب قـــوانين الاشـــياء العلميـــة الماديـــة الموضـــوعية ، فـــى دقـــة صـــارمة ، وكأنهـــا متـــرو مدينـــة "ليـــل" فـــى فرنســـا الـــذي يســـير بـــلا ســـائق بشـــرى.

أمـــا الـــنظم التـــى تنطلـــق مـــن الاعتـــراف بثنائيـــة الإنســـان/الطبيعة ، فهـــى لا يمكـــن أن تســـقط فـــي مثـــل هـــذه الرؤيـــة الســـاذجة، ومـــن ثـــم فـــإن إســـتراتيجية أنســـنة العلـــوم بالنســـبة إلـــى هـــؤلاء تتكـــون مـــن : اســـترجاع مفهـــوم الطبيعـــة البشـــرية ككيـــان مركـــب لايمكـــن أن يُـــرد للنظـــام الطبيعـــي، ولا أن يســـوى مـــع الأشـــياء الطبيعيـــة ، أي اســـترجاع الثنائيـــة التقليديـــة. وإن تـــم اســـترجاع مفهـــوم الطبيعـــة البشـــرية، فإنـــه ســـيتم معـــه اســـترجاع القـــيم الإنســـانية والأخلاقيـــة كقـــيم

اساسية فى عمليات البحث العلمي في مجال الطبيعة والإنسان، فاستبعاد هذه القيم هو الذى أدَّى إلى السقوط في الواحدية الكونية المادية وإلى تسوية الإنسان بالحيوان وإلى انفصال التجريب العلمي المادي عن العقلانية الإنسانية.

2-نظريـــــــــــــة الحقـــــــــــوق الجديـــــــــــدة

كثيـر مـن الحركـات التحرريـة الجديـدة الداعيـة)) للمسـاواة ((فـي عصر مـا بعـد الحداثـة تختلـف تمامـاً عـن الحركـات التحرريـة القديمـة، فـي عصـر الحداثـة. فالحركـات الجديـدة تـدعوا فـي واقـع الأمـر إلـى التسـوية ، فهـي تـرفض مفهـوم الطبيعيـة البشـرية المتجـاوزة للطبيعـة/المادة وللإنسـان الـذي يشـغل مركـزاً متميـزاً فـي الكـون، وتصـدر عـن فهـم للإنسـان باعتبـاره جـزءاً لا يتجـزأ مـن الطبيعـة/المادة لايتسـم بـأي تجـاوز لهـا أو تعـالٍ عليهـا .وانطلاقـاً مـن هـذا ن تؤسـس حركـات التحـرر الجديـدة نظريتهـا فـي الحقـوق ، فنجـد جماعـات تـدافع عـن الفقـراء والسـود والشـواذ جنسـياً والأشـجار وحقـوق الحيوانـات والأطفـال والعـراة والمخـدرات وفقـدان الـوعي ، وعـن كـل مـا يطـرأ ومـا لا يطـرأ علـى بـال، ولعـل شـيوع الرؤيـة الحلوليـة الكمونيـة الواحديـة فـي العصـر الحـديث هـو الـذي يُفسـر سـر انتشـار الـديانات الطبيعيـة والعبـادات الجديـدة والنزعـات الكونيـة والـدفاع الحلـولى الكمـونى عـن البنيـة، فكلهـا دعـوات تؤكـد اسـبقية الكـون علـى الإنسـان، وتـدعوا الإنسـان إلـى الـذوبان فـي الكـون، وتلغـى كيانـه كمقولـة مسـتقلة عـن عـالم الطبيعـة . ويُعـد رفـض الإنسـان تأييـد هـذه الـدعوة للتسـوية فعـلاً رجعيـاً ورفضـاً للتقـدم،مع أن رفضـه فـى واقـع الأمـر محاولـة للعـودة إلـى الإنسـانية والتراجـع عـن حالـة الطبيعـة الماديـة) البهيميـة(، كمـا انـه دفـاع عـن مركزيـة الإنسـان فـى الكـون ورفـض تسـويته ومسـاواته بالحيوانــات.

وفى هذا الأطار ، يمكننا أن نعيد النظر في هذا الدفاع الشرس عن الشذوذ الجنسى والدعوة إلى تطبيعه ، فهو في جوهره ليس دعوة للتسامح أو لتفهم وضع الشواذ جنسياً ، بل هو هجوم على المعيارية البشرية، وعلى الطبيعة البشرية كمرجعية نهائية ومعياراً ثابتاً يمكن الوقوف على ارضه لإصدار أحكام وتحديد ما هو إنساني وما هو غير إنساني. والشذوذ الجنسي هو محاولة أخرى لإلغاء ثنائية إنسانية اساسية هى ثنائية الذكر/ الأنثى التى تستند إليها المعيارية الإنسانية.

بل أننا نرى أن الحديث المتواتر والمتوتَّر عن حقوق الإنسان والذي تقوده اكثر الدول إمبريالية فى العالم، الولايات المتحدة، هو في جوهره هجوم على الإنسان والطبيعة البشرية. فالإنسان الذي يتحدثون عن حقوقه هو وحدة مستقلة بسيطة أحادية البعد لا علاقة له بأسرة أو مجتمع أو دولة ، وهو مجموعة من الحاجات المجردة التى تحددها الأحتكارات وشركات الإعلانات والأزياء وصناعات اللذة. والفرد هنا هو وحدة تتلقى عديداً من الأشارات الحسية البسيطة الكثيفة من مؤسسات عامة لا خصوصية لها ولا تحمل أى قيم، إلا فكرة تعظيم الأرباح.وحقوق مثل هذا الإنسان هى في واقع الأمر استمرار للهجوم على الطبيعة البشرية بوصفها كياناً مركباً متجاوزاً للطبيعة/المادة. ولذا، لم يتحدث أحد عن حق الإنسان في وقف تيار الأباحية التي تُصدَّر من الغرب، والتي تهدر ابسط الحقوق الإنسانية . وكذلك لا يتحدث احد

عــن حقــوق الأفــراد (الشــعوب) الــذين سُــرقت وتُســرق امــوالهم وتــودع فــي بنــوك غربيــة مــن قبــل شخصــيات تســاندها الحكومــات نفســها التــي تصــرخ عــن حقــوق الإنســان، ولــم يحــتج أحــد علــى صــناعة اســلحة الفتــك والــدمار التــى يطــور ويصــنع معظمهــا فــي العــالم الغربــي. فالحــديث دائمــاً يجــرى عــن إنســان مجــرد بســيط لا يوجــد داخــل المجتمــع والتــاريخ والأســرة. ولــذا، نجــد أن الحــديث ينصــب علــى الحقــوق المطلقــة لهــذا الفــرد؛ أي حقــوق تتجــاوز حقــوق المجتمــع ومنظوماتــه الأخلاقيــة والمعرفيــة.

ويظهــر الهجــوم علــى الطبيعــة البشــرية مــن خــلال نظريــة الحقــوق المطلقــة فــي المفهــوم الجديــد للأقليــات الــذي يروجــه النظــام العــالمى الجديــد، وهيئــة الأمــم المتحــدة، وبعــض الجماعــات التــى تــدور فــي فلكهــا. فالجماعــات الدينيــة الصــغيرة أقليــة ، والجماعــات الإثنيــة الصــغيرة أقليــة ، والشــواذ جنســياً اقليــة ، والنســاء أقليــة ، والمعوقــون أقليــة، والمســنون أقليــة، والبــدينون اقليــة والأطفــال أقليــة ،، وكــل واحــد فــيهم لــه حقــوق مطلقــة. وهــذا يــؤدي فــى واقــع الأمــر إلــى أن فكــرة المجتمــع الــذي يســتند إلأى عقــد اجتمــاعي تصــبح مســتحيلة إذ إن الحقــوق المطلقــة لا يمكنهــا التعــايش. وهــذا مــا حــدث فــي فلســطين المحتلــة حــين جــاء اليهــود بحقــوق يهوديــة مطلقــة شــردت الفلســطينيين وهــدمت وطــنهم. ولكــن الأخطــر مــن هــذا هــو أن تكــون الغالبيــة العظمــى مــن النــاس أقليــات ، فهــذا يعنــى أنــه لا يوجــد اغلبيــة، أي لا يوجــد معياريــة إنســانية، فتصــبح كــل الأمــور نســبية متساوية وتسود الفوضى المعرفية والأخلاقية.



3- حركة التمركز حول الأنثى

ولعل أهم نظريات الحقوق هي النظرية التي تدعو لها الحركات النسائية الجديدة. ولعل الخلط المصطلحي السائد في هذه الحركات (التحرر) هو ذاته تعبير متبلور عن الصراع الدائر بين النموذجين: نموذج المرجعية المتجاوزة والجوهر الإنساني المستقل وإمكانية المساواة. ونموذج المرجعية المادية الكامنة. فقد ظهر في اللغات الغربية (الإنجليزية) مصطلح ويمنز ليبريشن موفمنت **women's liberation movement** الذى يترجم عادةً إلى حركة تحرير المرأة والدفاع عن حقوقها، وهذا ما كان يفهم من هذاالمصطلح بشكلٍ عام في اللغات الأوروبية. ثم ظهر منذ عدة سنوات مصطلح فيمنيزم **feminism** وحل محل المصطلح الأول وكأنهما مترادفان، وكأن المصطلح الأخير اكثر شمولاً أو أكثر راديكالية من المصطلح الأول، وليس مختلفاً عنه تمام الأختلاف . ولكننا لو دققنا النظر في هذا المصطلح الأخير لوجدنا أنه يشير في واقع الأمر إلى مدلولين مختلفين تمام الأختلاف : حركة تحرير المرأة وما يمكن تسميته حركة التمركز حول الأنثى وهما حركتان – في تصورنا – مختلفتان، بل ومتناقضتان. فحركة تحرير المرأة هي حركة أجتماعية ذات مرجعية إنسانية متجاوزةن بمعنى أنها ترى المرأة باعتبارها جزءاً من المجتمع، كائناً مستقلاً عن عالم الطبيعة/المادة لايمكن تسويته بالظواهر الطبيعية، ومن ثم تحاول ان تدافع عن حقوقها داخل المجتمع. وبرغم ان هذه الحركة– في رأينا

– حركة علمانية في رؤيتها، تستند إلى فكرة العقد الأجتماعى (والإنسان الطبيعي والإنسان الأقتصادي)، إلا أن مثلها الأعلى يحوي داخله أبعاداً إنسانية اجتماعية مركبة، متجاوزة للطبيعة/ المادة، لعلها بقايا الرؤية التوحيدية والهيومانية فى الغرب، وهي رؤية تفترض مركزية إنسانية وعيارية إنسانية معينة ، وهى بمثابة المرجعية النهائية ، المتجاوزة للطبيعة/المادة والتى تضع حدوداً بينه وبينها فلا يذوب فيها ويسوى بالكائنات الأخرى. ومع تصاعد معدلات العلمنة وهيمنة المرجعية الكامنة، بدأت هذه البقايا في التبخر، وتراجع البعد الأجتماعي الذى يفترض مركزية إنسانية وهوية إنسانية منفردة ، وثنائيةالإنسان والطبيعة، وتم إدراك الأنثى خارج أي سياق اجتماعى إنساني وكأنها كائن طبيعى مادي يتساوى مع الأشياء الطبيعية المادية الأخرى. ولنا أن نلاحظ أن ما يحدث هنا هو عملية تفكيك لمقولة المرأة كما تم تحديدها وتعريفها عبر التاريخ ، لتحل محلها مقولة جديدة تماماً تسمى المرأة أيضاً ولكنها مختلفة في جوهرها عن سابقتها. وهذا جزء من عملية تفكيك مقولة الإنسان التي تقوم بها الحضارة الغربية العلمانية الحديثة في إطار المرجعية المادية الكامنة حين أعلنت أن الإنسان لا يتحرك في إطار المرجعية المتجاوزة، وإنما هو كائن طبيعي مادي ينتمي للطبيعة/المادة، وسمت الكائن الطبيعي الجديد الإنسان الطبيعي، الإنسان غير الإنسان ، الإنسان الذي يُرد إلى مرجعية مادية غير إنسانية، ومن ثم فهو يتساوى مع الكائنات الأخرى. ونحن نرى أن الخطاب المتمركز حول الأنثى يفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى المرأة،

فـالأنثى فـي الغطـار التعاقـدي هـي مركـز الأسـرة وعمودهـا الفقـري، ومـن ثـم فهـي مركـز الإنسـانية التـي نعرفهـا ، وهـي المؤسسـة التـي يحتمـي بهـا الإنسـان ويحقـق مـن خلالهـا جـوهره . وقـد تـم تقسـيم العمـل فـي هـذا الإطـار.لكن ضـرب هـذا المركـز هـو ضـرب للإنسـانية كما نعرفهـا وللطبيعـة البشـــــــــــرية كمـــــــــــا خبرناهـــــــــــا.

إن البرنـامج الإصـلاحي الـذي تطرحـه حركـة التمركـز جـول الأنثـى لا يهـدف إلـى تحقيـق مسـاواة بـين الرجـل والمـرأة أو إلـى تغييـر القـوانين أو السـياق الأجتمـاعي للحفـاظ علـى إنسـانية المـرأة باعتبارهـا أمـاً وزوجـة وابنـة وعضـواً فـي الأسـرة أو المجتمـع ، وإنمـا يرمـي إلـى تفكيـك مقولـة المـرأة فـي إطـار المرجعيـــة الماديـــة، لتصـــبح إنســـاناً طبيعيـــاً، ويـــنم عـــن هـــذا شـــكلين متناقضـــتين، يعبـــران عـــن نزعتـــي تأليـــه الكـــون وإنكـــاره:

أ –تأكيـد الفـوارق التشـريحية بـين الرجـل والمـرأة . وتصـبح الخصـائص التشـريحية للمـرأة هـي قـدرها، والخصـائص التشـريحية للرجـل هـي ايضـاً قـدره، ومـن ثـم تصـبح المـرأة هـي عـدو الرجـل وينحـل العـالم إلـى ثنائيـة صـارمة: ثنائيـة الأنـا والآخـر، ولا توجـد أي مرجعيـة إنسـانية جوهريـة مشـتركة بينهما.فـالمرأة فـي حالـة صـراع كـوني مـع الرجـل، وكأنهـا الشـعب المختـار فـي مواجهـة الأغيـار، وتظهـر نظريـات عـن ذكـورة وأنوثـة الإلـه وعـن الفهـم الأنثـوي للتـاريخ وعـن اسـتحالة التواصـل بـين الـذكر والأنثـى ، فـالأنثى متمركـزة حـول ذاتهـا وفـي حالـة صـراع كـوني مـع الـذكر، ومهمـة

البرنامج الإصلاحى المتمركز حول الأنثى هو تحسين أدائها في عملية الصراع هذه . كما تهدف هذه البرامج إلى تغيير الإنسانية لتعكس الثنائية الصلبة ، بل وتهدف إلى فرض الثنائية على التحليل التاريخي.

ويتم الهجوم على ما يسمى ذكورة اللغة ولكنه في واقع الأمر هو هجوم على اللغة البشرية وحدودها وتشويه وأيقنة لها. فهل نحن نفكر في كلمة الأمانة باعتبارها أنثى، وفى لفظ الشيطان بأعتباره ذكراً؟ وحينما نقول : أبواب ، هل نفكر في أعضاء التذكير، بينما نفكر في اعضاء التأنيث حينما نقول بوابات أم أن هذا هو وجدان الحلوليين الكمونيين الواحديين الطبيعيين الماديين الذين يستخدمون الجنس عنصراً اساسياً لإدراك كل شيء؟ وهل يمكن أن يكون استخدام كلمة الإنسان وهي تعبير عن الذكر والأنثى ، حلاً للمشكلة ؟ الأجابة بطبيعة الحال، بالنفي ، لكن المهم هو طرح برامج نقدية مستحيلة ، غير قابلة للتنفيذ ، وذلك حتى يتم تقويض حدود اللغة القائمة والمرجعية الإنسانية المتجاوزة.

يُنظر للمرأة باعتبارها اقلية، وكلمة اقلية هنا لا تعني أقلية عددية مضطهدة، وأنما تعنى فى واقع الأمر أنه لا يوجد اغلبية من أي نوع، إنسانية مشتركة ، ولا يوجد معيار يحكم به، فالجميع مساوون ولا يمكن الحكم على أحد ، أي إن الأقلية تعني اختفاء المرجعية الإنسانية.

ب –ويمكـن أن تأخـذ عمليـة التفكيـك لمقولـة المـرأة شـكلاً مغـايراً تمامـاً إذ تصـبح المـرأة كائنـاً طبيعيًّـا تـتم تسـويتها بالرجـل فـي جميـع الوجـوه بحيـث لا تختلـف عنـه فـي أي شـيء، دورهـا لا يختلـف عـن دوره، إي إنـه تـم أختـزال الرجـل والمـرأة إلـى مسـتوى واحـد. وتسـويتهما فـي إطـار مـن الواحديـة الكونيـة الماديـة يعبـرَّ عـن نفسـه فـي ظهـور الجـنس الواحـد أو الجـنس الوسـط بـين الجنسـين (بالإنجليزيـة : يـوني سـكس (unisex ، أي إنـه تـم رد الواقـع إلـى عنصـر واحـد أو مبـدأ واحـد ينكـر أي عـدم التجـانس أو أي تنـوع، بـل وينكـر وجـود ثنائيـة ذكر/أنثـى، فالـذكر مثـل الأنثـى والأنثـى مثـل الـذكر.

وكمـا أن الإنسـان فـي المنظومـة العلمانيـة الواحديـة يـتم إعـادة صـياغته بحيـث يصـبح إمـا فـوق الإنسـان أو دون الإنسـان (سـوبر مـان نيتشـه أو الإنسـان العـادي– إرادة القـوة أو التكيـف والمرونـة– قاتـل أو مقتـول) ، فإنـه يـتم إعـادة صـياغة المـرأة بحيـث تصـبح إمـا اكثـر مـن مـرأة (عـدو الرجـل) أو أقـل مـن امـرأة (متطابقـة مـع الرجـل تمامـاً :اليونيسـكس). وفـي كلتـا الحـالتين، لـيس المـرأة هـي الأم– الزوجـة – الأخـت – الحبيبـة التـي نعرفهـا والتـي لهـا دور مسـتقل داخـل إطـار الجماعـة الإنسـانية الشـاملة التـي تضـم الـذكور والإنـاث والصـغار والكبـار. وبسـقوط الأم والزوجـة ، تسـقط الأسـرة ويتراجـع الجـوهر الإنسـاني أو يصـبح كـل البشـر أفـراداً طبيعيـين لكـلّ مصـلحته الخاصـة يجـابهون الدولـة وقطـاع اللـذة والإعلانـات

بمفردهم، ويسقطون في قبضة الصيرورة، ويتم تسوية الجميع بالحيوانات والأشياء.

4- مشكلة القيمة في المجتمعات العلمانية (الرأسمالية و الاشتراكية الحديثة)

ثمة مشكلة أساسية كامنة في المجتمعات العلمانية التي تستند إلى عقد اجتماعي نابع من الإيمان بحقوق الإنسان الطبيعية، و هو عقد –كما نعلم- ينص على مساواة كل البشر. و لكن الإطار العام هو المرجعية المادية الكامنة) الطبيعة/المادة(، الأمر الذي يعني استبعاد أي قيم متجاوزة مطلقة، و استبعاد الإنسان أيضا كقيمة مطلقة. و من ثم، يصبح نموذج المجتمع هو حركة الذرات المتساوية المتحركة المتصارعة، و هو نموذج بسيط للغاية لا يعترف بالهرمية أو التراتبية و لا يميز بين ذرة و أخرى. و الذرات تتحرك من تلقاء نفسها و يسود النظام بشكل آلي من تلقاء نفسه، تماما كما يحدث في عالم الأشياء و الحيوان، فثمة تسوية كاملة بين الإنسان و الأشياء. و تؤدي هذه الرؤية، بطبيعة الحال، إلى نسبية أخلاقية يتساوى داخلها الخير بالشر. و تعبر هذه المرجعية المادية الكامنة عن نفسها في مفهوم السوق/المصنع و الإيمان بأن كل شيء يرد إلى المادة و بأن البناء الفوقي يمكن تفسيره في كليته في ضوء البناء التحتي) في النظام الاشتراكي.(

و لكن إلى جانب هذا العالم الذري الأملس المستوي، الذي وقع في قبضة الصيرورة، الخالي من القيم المطلقة و الذي لا مركز له، يوجد الإيمان (في كل من الرأسمالية و الاشتراكية) بعزة النفس و بكرامة الإنسان و حقوقه المطلقة و بالعدالة، فهو إيمان بمطلقات متجاوزة

لعالم الصيرورة المادية، و من ثم هي تفصل الإنسان عن عالم الطبيعة، و تميز بينه و بين الأشياء و ترفض التسوية بينهما، و يتم ترتيب عناصر الواقع بموجبها. فما هو خير، هو ما يقترب في هذه القيم) الجوهرية (و يحققها، و ما هو شر هو ما يبتعد عنها. و تستند النظرية الماركسية إلى الإيمان بوجود جوهر إنساني يشكل الابتعاد عنه اغترابا، و من ثم فإن مفهوم الاغتراب الماركسي هو تعبير عن التمسك الإنساني الهيوماني بالمطلقات الإنسانية مثل العدالة و منع الاستغلال و مساواة الإنسان بأخيه الإنسان، و هي مطلقات تشكل جوهر الاشتراكية في حقبتها البطولية، و باسمها تتم الثورة ليتجاوز الإنسان واقعه و ينهي حالة اغترابه. فكأن هناك نموذجان : واحد حلولي كموني مادي ينكر التجاوز، و الآخر يدور في إطار مرجعية متجاوزة داخل إطار مادي. و هنا، يبدأ الصراع الحاد الخاص بالقيمة في المجتمعات العلمانية، فإذا كان ثمة إيمان بالقيم المطلقة، فمن ذا الذي يقرر هذه القيم؟ الإجابة الحديثة عن هذا السؤال، في إطار المرجعية المادية الكامنة، هو : الأغلبية العددية، و يقال أيضا : العلم الطبيعي الذي يسوي بين الإنسان و الطبيعة، فلا يوجد أي حقيقة مفارقة لواقعنا الأرضي و صيرورتنا الزمنية، أي إن المتجاوز المفارق، القيم المطلق مثل الكرامة و العزة، تسقط في الصيرورة، الأغلبية العددية و العلم الطبيعي. و هنا، تظهر الإشكاليات المختلفة. فماذا يحدث لو قررت الأغلبية الاستغناء تماما عن مفهوم الطبيعة البشرية الجوهرية المتميزة عن الطبيعة المفارق لها و بدأت تحكم على البشر من منظور حلولي كموني واحدي طبيعي

مـادي كمـي؟ مـاذا لـو قـررت الأغلبيـة، متسـلحة بالرؤيـة العلميـة الماديـة الطبيعيـة، ضـرورة إبـادة المرضـى الـذين لا يرجـى شـفاؤهم؟ ألـيس مـن حـق أعضـاء أي مجتمـع يـدور فـي إطـار الحلوليـة الكمونيـة أن يقـرروا أي قـرار طبيعـي مـادي دون العـودة إلـى أي مرجعيـة إنسـانية مفارقـة؟ ألـيس مـن حقهـم استئصـال جـزء مـن الجسـد يـراه صـاحب هـذا الجسـد ضـارا، بمـا فـي ذلـك أعضـاء الأقليـات غيـر المرغـوب فـيهم؟ ألـيس هـذا أمـرا طبيعيـا ماديـا لا يمكـن الوقـوف ضـده إلا بـالعودة إلـى مرجعيـة متجـاوزة و منظومـة قيميـــة مطلقـــة تؤكـــد القيمـــة المطلقـــة للإنســـان؟ و مـاذا لـو أن أعضـاء الأغلبيـة، انطلاقـا مـن إيمـانهم بـأن الإنسـان كـائن يتسـاوى مـع كـل الكائنـات الأخـرى قـرروا التخلـي عـن قـيم إنسـانية، مثـل القـيم الاشـتراكية عـن العدالـة و مركزيـة الإنسـان، و آثـروا الاسـتغراق فـي قـيم طبيعيـة ماديـة مثـل الإنتـاج و الاسـتهلاك باعتبارهـا أمـورا ألـذ و أظـرف و أكثـر طبيعيـة و أكثـر ماديـة و معقوليـة مـن عمليـة الـدفاع عـن هـذه القـيم، كمـا حـدث فـي الاتحـاد السـوفيتي حـين سـقطت المنظومـة الاشـتراكية؟ و تصـبح الأمـور أكثـر إشـكالية، علـى صـعيد العلاقـات الدوليـة، لـو قـررت دولـة مـثلا غـزو الـدول الشـعبية الأخـرى، فمـا الأسـاس الأخلاقـي لمحاولـة وقفهـا عـن عـدائها، مـع غيـاب المرجعيـة الإنسـانية المشـتركة المتجـاوزة؟ و مـاذا لـو قـررت دولـة مـا التوسـع فـي إنتـاج السـلع، الطبيعـة الماديـة التـي لا علاقـة لهـا بـأي مرجعيـة إنسـانية أو ربانيـة، المرتبطـة بإباحيـة الأطفـال كمـا تفعـل الـدانمارك، أكبـر منـتج لهـذه الأشـياء فـي العـالم، و هـل مـن حـق الجماعـة الدوليـة إيقافهـا؟ و مـا هـو هـرم القـيم الـذي يجعلنـا نفتـرض أسـبقية

قيمة أخلاقية إنسانية مطلقة غير طبيعية الوقوف ضد غزو الشعوب و الإباحية على قيمة طبيعية مادية خالصة مثل الإنتاجية و الربح؟ و على أي أساس تعارض الأمم المتحدة الآن في انضمام بعض الجماعات المدافعة عن ممارسة اللواط مع الصبية ممن لم يبلغوا سن الرشد بعد؟ و إن قبلنا باللواط باعتباره أسلوبا مختلفا من أساليب الحياة و تعبيرا عن حرية الإنسان و ميله الجنسي، فما هذا الحديث عمن لم يبلغوا سن الرشد بعد؟ و لماذا يكون ذلك أمرا مباحا لمن بلغوا سن الرشد و غير مباح لمن لم يبلغوا هذه السن السحرية بعد؟ أليست كل الأمور طبيعية مادية نسبية متساوية؟ أو لم يتم تسوية الإنسان بالإنسان و الإنسان بالطبيعة؟

5- الثقافة الشعبية و الهجوم على الطبيعة البشرية

هذا الهجوم الواضح على الإنسان في العلوم الإنسانية الغربية العلمانية يظهر في أشكال كثيرة في حياتنا اليومية. فيلاحظ في الثقافة الشعبية التي تصدرها هوليود شيوع شخصيات لا علاقة لها بالطبيعة البشرية أو بالإنسان كما نعرفه، فهناك شخصيات ما فوق الإنسان (طرزان – رامبو – .. إلخ)، و لكن هناك شخصيات دون الإنسان (فرانكشتاين – مادونا)، و هي كلها شخصيات لا علاقة لها بالإنسان و لا بالطبيعة البشرية تذكرنا بإنسان داروين و نيتشه و فرويد. و سلوك الإنسان الجنسي و أحلامه هي شأن خاص تماما مرتبط بفرديته و رؤيته للنفس.

و لـذا، نجـد أن الهجـوم علـى الطبيعـة البشـرية فـي مجـال الثقافـة اليوميـة قـد ركـز علـى هـذا الجانـب ببراعـة فائقـة إذ إنـه يمكـن صـياغة أحـلام الإنسـان الجنسـية بطريقـة تجعلـه يقبـل اختفـاء المعياريـة الإنسـانية المركبـة المتجـاوزة للطبيعـة/المادة. و نحـن نـرى أن انتشـار الإباحيـة فـي العـالم الغربـي لـيس مجـرد مشـكلة أخلاقيـة و إنمـا هـي أيضـا قضـية معرفيـة. فالإباحيـة هـي جـزء مـن هـذا الهجـوم علـى الطبيعـة البشـرية و علـى قداسـة الإنسـان و محاولـة تفكيكـه، فقـد قامـت الرؤيـة العلمانيـة الإمبرياليـة بتطبيـع الإنسـان، أي رأتـه كائنـا طبيعيـا ماديـا بسـيطا و حسـب، و نظـرت إليـه باعتبـاره مـادة نسـبية صـرفة لا قداسـة لهـا. و الإباحيـة هـي تعبيـر عـن الاتجـاه نفسـه، فتجريـد جسـد الإنسـان مـن ملابسـه هـو نـوع مـن نـزع القداسـة عنـه حتـى يتحـول الإنسـان، خليفـة الله فـي الأرض فـي الـرؤى الدينيـة، و مركـز الكـون فـي الـرؤى الإنسـانية، إلـى مجـرد لحـم يوظـف و يسـتغل بحيـث يصـبح مصـدرا للـذة. و مـن هـذا المنظـور، يمكـن أن نـرى الإبـادة النازيـة لليهـود و غيـرهم علـى أنهـا شـكل مـن أشـكال الإباحيـة أو الإمبرياليـة الكاملـة التـي تـؤدي إلـى مـوت الإنسـان الفعلـي، فهـي حولـت البشـر إلـى صـفوف و تـلال لحـم توظـف و ينتفـع بهـا و لـذا، فـنحن نـرى أن ثمـة تشـابها بـين اللحظـة النازيـة و اللحظـة التايلانديـة فـي الحضـارة العلمانيـة، فكلاهمـا أسـقط القداسـة عـن الإنسـان و رآه مـادة اسـتعمالية توظـف فـي أعمـال السخرة في ألمانيا و في البغاء في تايلاند.

الفصل الثالث

العقل و المادة

تستخدم كلمة عقل و كأنها كلمة واضحة المعالم محددة الأبعاد، دال مدلوله واضح تمام الوضوح. و لكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن الأمر جد مختلف، و أن العقل يدور في إطار مرجعية معينة تشكله و تحدد مجاله.

العقل المادي

العقل في اللغة الحجر و النهي، و قد سمي بذلك تشبها بعقل الناقة، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل، كما يمنع العقال الناقة من الشرود.

و العقل في الخطاب الفلسفي) خصوصا الغربي (كلمة غامضة للغاية لها معان كثيرة متناقضة أحيانا. و عادة ما يوضع العقل في مقابل الخيال و التجربة و الإيمان و العاطفة، و لكن هناك أيضا من يرى ضرورة ارتباط العقل بكل هذه المقولات، كما يرى أنه من دونها يصبح أداة مدمرة.

و هناك من يرى أن العقل إن هو إلا جزء لا يتجزأ من الطبيعة–المادة، و هذا هو العقل المادي، و لكن هناك أيضا من يرى أن العقل يتمتع

باستقلالية عنها. فعلى سبيل المثال، عرف الفلاسفة الماديون العقل بأنه صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات الحسية لتصبح أفكارا بسيطة، و تتجمع الأفكار البسيطة من تلقاء نفسها) و من خلال قوانين الترابط (لتصبح أفكارا مركبة، و تستمر عملية التركيب إلى أن نصل إلى ما نتصور أنه الأفكار الكلية و الثوابت و المطلقات مع أنها في واقع الأمر مجرد أحاسيس مادية، فكأنه لا يوجد في العقل شيء لا يوجد أصلا في الواقع المادي. هذه هي الصورة المبدئية للعقل المادي، و لكنها يمكن أن تأخذ أشكالا أكثر صقلا، فالنظرية الدراروينية ترى أن العقل قد ظهر من خلال عملية تطور كامنة في المادة ذاتها. و ترى الماركسية أن العقل ظهر من خلال علاقة الإنسان بالطبيعة و ببقية البشر أثناء العملية الإنتاجية. أما دوركهايم فقد تحدث عن العقل الجمعي، و أنه من الجماعة بمثابة الضمير من الفرد. و لكن العقل الجمعي، في نهاية الأمر و في التحليل الأخير، إن هو إلا صورة مركبة مجردة اجتماعية من العقل التجريبي الفردي الذي يكون المعرفة من خلال مراكمة المعطيات الحسية) فلا يوجد في العقل شيء لا يوجد له أصل في الواقع المادي.(

أما الفلسفات التي يقال لها مثالية، فترى أن العقل قوة في الإنسان تدرك المبادئ العامة التي تتحكم في الواقع، كما تدرك المعاني العامة غير المادية، مثل : ماهية الظواهر، أي كنهها لا ظواهرها، و الوجود و العدم، و الجوهر في مقابل العرض، و العلية و المعلولية، و الغاية و الوسيلة، و الخير و الشر، و الفضيلة و الرذيلة، و الحق و الباطل، و

الجـزء و الكـل، و علاقـة كـل هـذه الثنائيـات بعضـها بـبعض، و يعـرّف العقـل بأنـه الملكـة التـي يحصـل بهـا للـنفس علـم مباشـر بالحقـائق المطلقـة. فكـأن هـذا العقـل شـيء مسـتقل عنـا. و كـل إنسـان يشـعر بـأن فـي داخلـه عقـلا محـدودا لا يصـحح أحكامـه إلا باسـتلهام عقـل كلـي ثابـت لا يتغيـر. و قـد عـرّف العقـل كـذلك بأنـه مجمـوع المبـادئ الصـلبة، المنظمـة للمعرفـة، كمبـدأ عـدم التنـاقض، و مبـدأ السـببية، و مبـدأ الغائيـة. و تتميـز هـذه المبـادئ بضـرورتها و كليتهـا و اسـتقلاليتها عـن التجربـة، و مـن هنـا التمييـز بـين النزعـة العقلانيـة و النزعـة التجريبيـة. و قـد خلـص بعـض الفلاسـفة مـن ذلـك إلـى المعـاني الأوليـة التـي يكشـف عنهـا الفكـر موجـودة فـي العقـل قبـل اتصـاله بـالحس، و أن العقـل لـيس صـفحة بيضـاء لـم يـتم نقشـها، و إنمـا هـو ذو رسـوم فطريـة تـنظم معطيـات التجربـة. و يشـير كـانط إلـى مـا يسـميه العقـل المجـرد أو العقـل الخـالص أو العقـل المحـض، و هـو مـا يسـمو علـى عـالم الحـس و التجربـة و العقـل التجريبـي، و هـو ضـرب مـن العقـل النظـري، و هـو مـا ينصـب علـى الإدراك و المعرفـة، كمـا يشـير إلـى العقـل العملـي، و هـو مـا ينصـب علـى الأخـلاق و السـلوك.

و يلاحـظ أن ثمـة تأرجحـا هنـا بـين تصـنيف العقـل علـى أنـه ينتمـي لعـالم الطبيعـة/المادة و التجربـة جـزء لا يتجـزأ منهـا، العقـل المـادي، و بـين كونـه يعلـو عليهـا مسـتقلا عنهـا، العقـل المثـالي أو غيـر المـادي، و يظهـر هـذ التـأرجح منـذ بداية تـاريخ الفلسـفة و الفكـر فـي العـالم. فأرسـطو يميـز بـين العقـل بالفعـل) و هـو فاعـل (و العقـل بـالقوة) و هـو منفعـل .(و قـد نسـب

شراح أرسطو إلى العقل بالفعل صفات تسمو به على عالم المادة و تبرئه من الفناء. و يلاحظ التأرجح نفسه في فكر مدرسة فرانكفورت حيث يميزون بين العقل النقدي) الذي يمكنه تجاوز الطبيعة (و العقل الأداتي و هو العقل الإجرائي الذي لا يحقق تجاوزا.

و قد حاولت المدرسة الألمانية المثالية أن تحل مشكلة التأرجح هذه بافتراض تقابل و تماثل كاملين بين العقل و الطبيعة، فالعقل الكلي يتجلى في كل من عقل الإنسان و الطبيعة/المادة، فيوحد بينهما و يجعل معرفة الواحد هي معرفة الآخر، أي إن المثالية الألمانية الواحدية تسقط في نهاية الأمر و في التحليل الأخير في الواحدية المادية التي ترد كل شيء إلى قوانين المادة، و ذلك برغم استخدامها اصطلاحات تنم عن الواحدية المثالية. و من هنا كان يمكن أن يخرج من هذه المدرسة هيجل و يخرج من تحت عباءته شيلنج و فخته من ناحية و فيورباخ و ماركس من ناحية أخرى.
و في الخطاب الفلسفي العربي الاستناري، عادة ما تستخدم كلمة العقل بشكل بسيط و مباشر و بشكل مطلق دون إيضاح، و لكن السياق يدل على أن المقصود هو العقل المادي القادر على التواصل مع الواقع بشكل مباشر دون أي مشاكل أو قلق، الأمر الذي يدل على عدم إدراك، أو إغفال متعمد، للقضايا التي أثارتها الفلسفة الغربية حين نصبت العقل المادي حكما. و عملية التأرجح التي دامت مئات السنين، والمحاولات، البطولية العبثية، المختلفة التي بذلها الفلاسفة

الغربيـون للتغلـب علـى عمليـة التـأرجح هـذه، هـي محـاولات أدت فـي نهايـة الأمـر إلـى ظهـور الماديـة الجديـدة و اللاعقلانيـة الماديـة التـي أعلنـت إفـلاس العقـل و نهايتـه. و عمليـة الإغفـال هـذه تـدل علـى أن الخطـاب الفلسـفي العربـي آثـر أن يبـدأ مـن حيـث بـدأ الغـرب، حـين كـان لا يـزال علـى مشـارف منظومتـه التحديثيـة الاسـتنارية الماديـة، لا مـن حيـث انتهـى، بعـد أن اكتملـت كثيـر مـن حلقـات المتتاليـة التحديثيـة الاسـتنارية الماديـة و بعـد أن تكشـفت معالمهـا، و بعـد أن أدرك كثيـر مـن المفكـرين و الفلاسـفة الغـربيين بعـض نقـط قصـور العقـل المـادي التـي يمكـن أن نوجزهـا فيمـا يلـي :

1- العقـل المـادي يوجـد داخـل حيـز التجربـة الماديـة محكـوم بحـدودها، و لـذا فهـو لا يكتشـف إلا ذاتـه فـي الواقـع و لا يهتـدي إلا بقـوانين المـادة الكامنـة فـي الأشـياء، و لا يمكنـه التعامـل لا مـع الواقـع و لا مـع كافـة الظـواهر إلا فـي هـديها.

2- ينسـحب هـذا علـى العقـل ذاتـه، و هـو يـتم تفكيكـه فـي إطـار الطبيعـة- المـادة، و يـرد إليهـا باعتبـاره جـزءا لا يتجـزأ منهـا، يسـري عليـه مـا يسـري عليهـا مـن قـوانين كامنـة فـي المـادة، و هـو مـا يعنـي إنكـار مقـدرة العقـل علـى التجـاوز و الوصـول إلـى الكليـات.

3- العقـل المـادي يصـبح بهـذه الطريقـة، أداة الطبيعـة-المـادة) و النمـاذج التـي تـدور فـي إطارهـا (فـي الهجـوم علـى الإنسـان، بـدلا مـن أن يكـون علامـة انفصـاله عنهـا و أسـبقيته عليهـا.

4- العقـل المـادي محايـد و قـادر علـى رصـد مـا هـو كـائن و غيـر قـادر

على إصدار الأحكام و على التعرف على ما ينبغي أن يكون، و لذا فهو يتعرف على الحقائق المادية و حسب، و لا يمكنه أن يتعرف على قيمتها. فالحقائق كمّ أما القيمة فكيف، و الحقائق أشياء ملموسة توجد في حيز التجربة المادية، أما الأخلاق فهي تنتمي إلى عالم يتجاوز حدود مثل هذه التجربة. و لذا، لا يمكن للعقل أن يصل إليها، و إن وصل إليها فهو ينكرها تماما و يردها إلى عالم المادة. و يفشل تماما في التمييز بين ما هو أخلاقي و ما هو غير أخلاقي، و بين ما هو إنساني و ما هو غير إنساني، و بين ما هو قبيح و ما هو جميل.

5- العقل المادي معاد للتاريخ، فالتاريخ بنية إنسانية متجاوزة لعالم الطبيعة-المادة، و هي تتسم بالتنوع و التركيب و الإبهام، أما العقل المادي -كما أسلفنا- فإنه يتعامل بكفاءة مع الأرقام و الصيغ البسيطة الواضحة و يدور في إطار الطبيعة-المادة.

6- و لكل هذا، نجد أن العقل المادي، بعد حقبة ثورية أولية، يتحول إلى عقل تكنوقراطي محافظ رجعي يذعن للأمر الواقع و قوانين الواقع الثابتة، فهو غير قادر على تجاوزها أو نقدها، فهي الأساس الذي يستند إليه، و مهمته في الإطار المادي هي رصدها في دقة بالغة و موضوعية تامة و سلبية كاملة.

7- العقل المادي لا يرصد سوى التشابه و التواتر و التجانس و العمومية، فهو عاجز عن رصد عدم الاستمرار والفرادة، و لذا فهو يقوم بتجريد الإنسان من خصوصيته و فرادته و تركيبته.

8- العقل المادي ينظر للواقع بمنظار كمي و يفرض المقولات الكمية

علـى الواقـع، فيرصـد الواقـع باعتبـاره كما و أرقامـا و سـطحا بسـيطا خاليـا مـن الأسـرار، فمـا يستعصـي علـى القيـاس يظـل بمنـأى عنـه و غيـر موجـود، و مـن ثـم يختفـي الكيـف تمامـا ويتحـول الإنسـان مـن كيـف إلـى كـم محـض.

-9العقـل المـادي غيـر قـادر علـى إدراك الإبهـام أو التركيـب، و لـذا فهـو يقـوم بتبسـيط الإنسـان و اختزالـه فـي صـيغ كاميـة رياضـية بسـيطة.

-10العقـل المـادي عقـل تافـه سـطحي، فهـو لا يمكنـه أن يسـأل أيـا مـن الأسـئلة الكليـة و النهائيـة الكبـرى) مـا الإنسـان؟ مـا مصـيره فـي الكـون؟ كيـف يواجـه المـوت؟ مـا نطـاق حدوديتـه و شـموليته؟ (فهـي أسـئلة لا معنـى لـه مـن منظـوره، قضـايا فارغـة، علـى حـد قـول الوضـعيين، لا يمكـن البرهنـة علـى صـدقها أو كـذبها.

-11العقـل المـادي لا يرصـد سـوى التفاصـيل المتنـاثرة التـي لا يربطهـا رابـط، و لـذا فهـو يـؤدي إلـى التشـظي. و لكنـه قـادر أيضـا علـى رصـد التماثـل و العموميـة، دون الخصوصـية التـي تـؤدي إلـى التفـرد. ممـا يفقـد الواقـع ألوانـه و شخصـيته. و قـد شـبه الواقـع المـادي بأشـعة إكـس التـي يمكنهـا أن تكشـف جمجمـة الـرأس لكـن لا يمكنهـا أن تنقـل لنـا صـورة الوجـه الإنسـاني فـي أحزانـه و أفراحـه.

-12العقـل المـادي عقـل غيـر قـادر علـى إدراك القادسـة و الأسـرار، و لا يعـرف الحرمـات أو المحرمـات، و لـذا فهـو ينـزع القداسـة بكـل صـرامة عـن كـل الظـواهر بمـا فـي ذلـك الإنسـان، و يراهـا باعتبارهـا مـادة اسـتعمالية

-13العقـل المـادي عقـل عنصـري غيـر قـادر علـى إدراك الكليـات) إلا الطبيعـة/المادة(، و لـذا فهـو يسـقط مفهـوم الإنسـانية المشـتركة، فهـو

مفهـــوم مركـــب لا يمكـــن قياســـه. و بـــدلا مـــن ذلـــك، يتـــأرجح العقـــل بـــين قطبـــين متنـــافرين : عنصـــرية التفـــاوت، و عنصـــرية التســـوية. فالعقـــل المـــادي قـــادر علـــى رصـــد الاختلافـــات الجوهريـــة بـــين النـــاس، فيؤكـــد التفـــاوت بيـــنهم، أو) علـــى النقـــيض مـــن هـــذا (هـــو قـــادر علـــى أن يصـــدر البشـــر باعتيـــارهم كيانـــات بيولوجيـــة و حســـب، و مـــن ثـــم لا توجـــد أي اختلافـــات كيفيـــة بـــين كـــل الأفـــراد و بـــين الإنســـان و الحيـــوان، فالإنســـان شـــأنه شـــأن الحيـــوان، مجموعـــة مـــن الوظـــائف البيولوجيـــة و الكيميائيـــة، و عـــدد مـــن الغرائـــز و التفـــاعلات الحتميـــة، و لـــذا فـــإن العقـــل المـــادي لا يســـوي بـــين كـــل البشـــر و حســـــب، و إنمـــــا يســـــوي كـــــل البشـــــر و الحيوانـــــات.

-14العقـــل المـــادي، لأنـــه لا يمكنـــه إدراك الكليـــات أو القيمـــة أو الثوابـــت أو المطلقـــات أو المقدســـات، عقـــل تفكيكـــي عـــدمي قـــادر علـــى تفكيـــك الأشـــياء كمـــا يقـــول دعـــاة مـــا بعـــد الحداثـــة عـــاجز عـــن إعـــادة تركيبهـــا. عقـــل يفـــرز قصصـــا صـــغرى و حســـب، أي مجموعـــة مـــن الأقـــوال التـــي ليســـت لهـــا أي شـــرعية خـــارج نطاقهـــا المباشـــر و الضـــيق تمامـــا مثـــل إدراك العقـــل المـــادي للعقـــل المـــادي بطريقـــة حســـية مباشـــرة، و هـــو عقـــل عـــاجز عـــن إنتـــاج القصـــص الكبـــرى أو النظريـــات الشـــاملة و عـــن التوصـــل للحقيقـــة الكليـــة، و مـــن ثـــم لا يوجـــد بالنســـبة إلـــى هـــذا العقـــل التفكيكـــي المـــادي، خيـــر أو شـــر أو عـــدل أو ظلـــم، و لا توجـــد أيـــة ثنائيـــة مـــن أي نـــوع. و هـــو أمـــر متوقـــع بعـــد أن صـــفى هـــذا العقـــل ثنائيـــة الإنســـان و الطبيعـــة.

-15العقـــل المـــادي، لكـــل مـــا تقـــدم، عقـــل إمبريـــالي فهـــو عقـــل لا يلتـــزم بـــأي مقـــاييس أخلاقيـــة و ينكـــر الإنســـانية المشـــتركة، كمـــا أنـــه لا تحـــده

حدود أو سدود، و لذا فهو لا يمكنه إلا التفكير في هزيمة العالم) الإنسان و الطبيعة (و اختزاله و تحييده و حوسلته و تحويل الطبيعة و الإنسان إلى مادة استعمالية، فكل الأمور متساوية و نسبية و لا قداسة لها.

و نحن نذهب إلى أن العقل الإنساني، شأنه شأن الظاهرة الإنسانية، مادي في بعض جوانبه، و لكنه في جوانب أخرى متجاوز للمادة. أي إنه ليس عقلا ماديا واحديا و لا مثاليا واحديا، و إنما عقل إنساني مركب يعيش في ثنائية الجسد و الروح التكاملية، و لا يمكن رده إلى أي شيء خارجه في عالم المادة.

العقل الأداتي والعقل النقدي

مصطلح العقل إذن ليس مصطلحاً بسيطاً . وقد ساهم مفكرو مدرسة فرانكفورت) ماركوز – هوركهايمر– أدرنو – هابرماس (في إلقاء المزيد من الضوء على العقل وإشكالياته ، فميزوا بين العقل الأداتي والعقل النقدي، وبيَّنوا وحشية العقل الأداتي. والعقل الأداتي ترجمة للمصطلح الإنجليزي إنسترومنتال ريزون **reason instrumental** ويُقال له إيضاً العقل الذاتي أو التقني أو الشكلي وهو على علاقة بمصطلحات مثل العقلانية التكنولوجية أو التكنوقراطية ويقف على الطرف النقيض من العقل النقدي او الموضوعي. والعقل الأداتي هو العقل الذي يلتزم، على المستوى الشكلي، بالأجراءات دون هدف أو غاية، أي إنه العقل الذي يوظف الوسائل في خدمة الغايات دون تساؤل عن مضمون هذه الغايات، وهل هي إنسانية أم معادية للإنسان؟ وهو، على المستوى الفعلي، العقل الذي يحدد غاياته وأولوياته وحركته انطلاقاً من نموذج عملي مادي بهدف السيطرة على الطبيعة والإنسان وحوسلتهما.

وفي محاولة تفسير هيمنة العقل الأداتي على المجتمعات الغربية الحديثة ، يرى اعضاء مدرسة فرانكفورت أن احد أهم اسباب ظهوره هو آليات التبادل المجردة في المجتمع الرأسمالي. فتبادل السلع يعني تساوي الأشياء المتبادلة، فما يُهم في السلعة ليس قيمتها الإستعمالية

المتعينة وإنما ثمنها المجرد. والأيدولوجيا النابعة من هذا التبادل المجرد هي أيدولوجيا واحدية تمحي الفروق وتُوحد الواقع مساويةً بين الظواهر المختلفة بحيث يصبح الواقع كله مادةً لاسمات لها. ولم تشكل المجتمعات التي كانت اشتراكية إي بديل ، فهي الأخرى سيطر عليها العقل الأداتي متمثلاً في التكنوقراطيات الحاكمة . ولا يفسر اعضاء مدرسة فرانكفورت اصول العقل الأداتي استناداً إلى عناصر مادية أو اقتصادية أو سياسية وإنما يرجعونه إلى عنصر ثقافي حضاري على طريقة ماكس فيبر. فالعقل الأداتي –حسبما يرى هوركهايمر وأدورنو –يعود إلى الأساطير اليونانية القديمة، خصوصاً اسطورة أوديسيوس بأعتبار أن الألياذة والأوديسة هما اللبنة الأسطورية الأساسية للوجدان الغربي .وقد جاء في الأوديسا أن اوديسيوس طلب من بحارته أن يضعوا في آذانهم حتى لا يسمعوا غناء الحوريات ، وهو غناء ينتهي بمن يسمعه إلى الأستسلام لهن ولإغوائهن. وطلب منهم أن يقيدوه إلى ((صاري)) السفينة ، وأن يزيدوا تقييده كلما ازداد الغناء . وتنتهي الأسطورة بانتحار الحوريات لأن اوديسيوس سمع غناءهن وعرف سرهن.

وتفسر هذه الأسطورة على النحو التالي:

1– علاقة الإنسان بالطبيعة في الأوديسة هي علاقة صراع وهيمنة وليست علاقة توازن .وأوديسيوس وبحارته هم رمز الإنسان الذي يود

الهيمنـــــــــــــــة علـــــــــــــــى الطبيعـــــــــــــــة

2-يـتم أنجـاز هـذا الهـدف عـن طريـق إهـدار إنسـانية الإنسـان وتلقائيتـه ، فالبحـــاره ، رمـــز الطبقـــة العاملـــة ، يفقـــدون الصـــلة تمامـــاً مـــع الطبيعـــة ، واوديســـيوس , رمـــز الطبقـــة الحاكمـــة ، لا يســـتمع إلـــى الغنـــاء إلا وهـــو مقيـــد إلـــى الصـــاري ، إي إنـــه يحلـــم بالســـعادة دون أن يعيشـــها ويحلـــم بالطبيعـــة دون أن يـــــــــــــرتبط بهـــــــــا.

3-لاينـتج عـن هـذا نفصـال الإنسـان عـن الطبيعـة وحسـب وإنمـا ينـتج عنـه إيضـــا انفصـــال المثـــال عـــن الواقـــع وانفصـــال الجـــزء الإنســـاني عـــن الكـــل الطبيعـــي، وبـــذا اصـــبح الإنســـان يعـــيش بعقلـــه فـــي مواجهـــة البيئـــة يحـــاول اســـتغلالها وحســـب دون أن يتفاعـــل معهـــا ، أي أن الإنســـان الكلـــي الحـــي يمـــوت ليحـــل محلـــه إنســـان اقتصـــادي إمبريـــالي ميـــت ، لأنـــه لا يحـــوي داخلــــــــــه الجــــــــــوهر الإنســــــــــاني المتكامــــــــــل.

4-تنتهـــي الأســـطورة بانتحـــار الحوريـــات ومـــوت الطبيعـــة ، لأنهـــا فقـــدت ســــــــــــحرها وقدســــــــــــيتها.

ويــرى مفكــرو مدرســة فرانكفــورت أن جــذور العقــل الأداتــي تعــود إلــى المنطــق الأرســطي الــذي يكشــف عــن الميــل لإخضــاع جميــع الموضــوعات ، ســواء كانــت عقليــة أم جســمية ، اجتماعيــة إنســانية أم طبيعيــة ماديــة ، لــــنفس القــــوانين العامــــة للتنظـــيم والحســـابات والأســـتنتاج.

وأخيــراً ، يــذكر هوركهــايمر وأدورنــو ذاتيــة ديكــارت حــين وضــع الــذات مقابــل الموضــوع وخلــق هــذه الثنائيــة الحــادة والصــلبة بينهمــا وكــأن الــذات يمكــن أن تُوجَــد مســتقلة عــن الموضــوع ، وكــأن الموضــوع يمكــن أن يوجــد فــي حــد ذاتــه مســتقلاَ ً عــن الــذات . واســتقلال الــذات هنــا يعنــي أنهــا ســتحول الطبيعــة إلــى مجــرد موضــوع للتأمــل (كمــا فعــل اوديســيوس) يمكــن توظيفــه وحوســلته والســيطرة عليــه .ويميــز أدورنــو وهوركهــايمر بــين المحاكــاة والإســقاط. فالمحاكــاة هــي إدراك مركــب يحفــظ التــوازن بــين الــذات والموضــوع كمــا يحفــظ التــوتر الخــلاف بينهمــا . أمــا الأســقاط فهــو شــكل مــن اشــكال البارانويــا إذ يحــول البيئــة إلــى مجــرد امتــداد للــذات.

وحركــة الأســتنارة هــي قمــة منطــق الســيطرة والهيمنــة يشــيرون لهــا بأنهــا الأســتانرة المريضــة والإســتنارو اللاإنســانية والمدنيــة فــي مقابــل الحضــارة، فهــي حركــة إســقاط لا محاكــاة إذ تلغــي الطبيعــة تمامــاً وتعلــن إمكانيــة الســيطرة النهائيــة مــن خــلال تجريــدها مــن خصائصــها الضــرورية (قداســتها – حرمتهــا– اســرارها –غيبهــا) ، وتفتيتهــا إلــى ذرات منفصــلة ، وأدركهــا مــن خــلال مقــولات واحديــة ماديــة بســيطة، وإخضــاعها للقيــاس والحســاب

والـتحكم والسـيطرة .ولكـن المفـارة تكمـن فـي أن الأسـتنارة بـذلك أدركـت الإنسـان نفسـه مـن خـلال مقـولات العلـوم الطبيعيـة البسـيطة (الموضـوعية المنفصـلة تمامـا عـن الـذات) . وينتهـي الأمـر حـين يسـوي التنـوير كـل شـيء بكـل شـيء آخـر ، ويصـبح العـالم مـادة اسـتعمالية خاضـعة لمؤسسـات العقـل الأداتـي الأداريـة ولابيروقراطيـة الـذي ينفلـت مـن أيـة غائيـات إنسـانية حتـي يصـبح قـوة مسـتقلة تمامـاً لهـا أجزاؤهـا وأهـدافها التـي تتجـاوز مـا هـو إنسـاني . وتصـل هـذه الاسـتنارة اللاإنسـانية إلـى قمتهـا فـي الفاشـية التـي هـي شـكل مـن أشـكال البارانويـا المتطرفـة التـي تُسـقط الـذات الإنسـانية علـى الطبيعـة وتُلغـي الطبيعـة تمامـاً ، فالرأسـمالية التقليديـة تعتمـد علـى وسـاطة السـوق ، ولـذا ثمـة علاقـة مـا بـين الـذات والموضـوع ، أمـا الفاشـية فهـي تُسـقط السـوق وتحـاول السـيطرة الكاملـة عليـه بشـكل مباشـر مـن خـلال ممارسـة القـوة غيـر المحـدودة.

ويمكـن القـول بـأن العقـل الأداتـي ، بعـد تبلـوره ، يتسـم بالسـمات التاليـة:

1- ينظـر العقـل الأداتـي إلـى الواقـع مـن منظـور التماثـل ولا يهـتم بالخصوصـية ، ولـذا فهـو يبحـث عـن السـمات المتماثلـة فـي الأشـياء ويهمـل السـمات التـي تميـز ظـاهرة مـا عـن أخـرى.

2- العقـل الأداتـي قـادر علـى أدراك الأجـزاء ، ولـذا فهـو يفتـت الواقـع إلـى أجـزاء غيـر مترابطـة ، ويفككـه دون ان يسـتطيع إعـادة تركيبـه إلا مـن خـلال

نمـــــــاذج اختزاليـــــــــــة بســـــــــيطة.

3-ينظـر العقـل الأداتـي إلـى الإنســان باعتبـاره مجـرد جـزء يشـبه الأجـزاء الطبيعية/الماديـة الأخـرى. وهـذا الجـزء لـيس لـه مـا يُميـزه عـن بقيـة العـالم، ولـذا فهـو مُسـتوعب فـي كليتـه فـي النظـام الاجتمـاعي وفـي تقسـيم العمـل الســـــــــــــائد وفـــــــــــــي الطبيعـــــــــــــــة/المادة.

4-العقـل الأداتـي ينظـر إلـى الإنســان مـن منظـور العلـوم الطبيعيـة باعتبـاره شـيئاً ثابتــاً وكمــاً واضـــحاً ووضـــعاً قائمـــاً لا يحـــوي إيـــة إمكانيـــات.

5-العقـل الأداتـي ينظـر إلـى الطبيعـة والإنســان باعتبارهمـا مـادة اسـتعمالية يمكـــــــن توظيفهمـــــــا وحوســـــــلتهما لخدمـــــــة أي هـــــــدف.

6-الهـدف النهـائي مـن الوجـود هـو الحفـاظ علـى بقـاء الـذات وهيمنتهـا وتفوقهـــا ، ومـــن هنـــا تســـميته بالعقـــل الـــذاتي إيضـــاً.

7-لتحقيـق هـذا الهـدف ، يلجـأ العقـل الأداتـي إلـى فـرض المقـولات الكميـة علـى الواقـع وإخضـاع جميـع الوقـائع والظـواهر الطبيعيـة والإنسـان للقـــوانين الشـــكلية والقواعـــد القياســـية والنمـــاذج الرياضـــية ، حتـــى يمكـــن التحكم في الواقع ويصل هذا إلى ذروته في الفلسفة الوضعية.

ينــــــــتج عــــــــن هـــــــذا مــــــــا يلــــــــــي:

_1أن العقــل الأداتــي يصــبح عــاجزاً تمامــاً عــن إدراك العمليــات الاجتماعيــة و السياســية و التاريخيــة فــي ســياقها الشــامل الــذي يتخطــى حــدوده المباشــرة , بــل إنــه يعجــز تمامــاً عــن إدراك غائيــات نهائيــة أو كليــات متجــاوزة للمعطيــات الجزئيــة الحســية و المعطيــات الماديــة الآنيــة (و لــذا, يمكــن تســميته بالعقــل الجزئــي) , و هــو مــا يعنــي أن يصــبح عــاجزاً تمامــاً عـــن تحقيـــق أي تجـــاوز معرفـــي أو أخلاقـــي.

_2لهــذا الســبب نفســه يصــبح العقــل الأداتــي غيــر قــادر علــى تجــاوز الحاضــر للوصــول إلــى الماضــي و إلــى استشــراف المســتقبل , أي أن العقـــل الأداتـــي يســـقط تمامـــاً فـــي اللازمنيـــة و اللاتاريخيـــة .

_3مــع غيــاب أيــة مقــدرة علــى إدراك الكلــى المتجــاوز و أيــة أســس تاريخيــة و رؤوى مســتقبلية . أي مــع غيــاب أيــة أرضــية معرفيــة ثابتــة , يمكــن أن تســتند إليهــا معــايير عامــة = يســقط العقــل الأداتــي تمامــاً فــي نســبية المعرفــة و الأخلاقيــة و الجماليــة و إذ تصــبح كــل الأمــور متســاوية , و مــن ثــم تظهــر حالــة مــن اللامعياريــة الكاملــة , و مــع هــذا , يمكــن القــول بــأن النمــوذج الكــامن المهــيمن علــى الإنســان يصــبح مــع تســاوي الأمــور هــو : الطبيعــة / المـــادة _الســـلعة_ الشـــيء فـــي ذاتـــه_ علاقـــات التبـــادل المجـــردة .

_4لكـل هـذا يصبح العقـل الأداتـي قـادراً علـى شـيء واحـد : قبـول الامـر الواقـع و التكيـف مـع مـا أمامـاه مـن وقـائع قائمـة و احـداث و جزئيـات و ظـروف القهـر و القمـع و التشـيؤ و الاغتـراب , وهـو مـا يعنـي تثبيـت دعـائم السـلطة و علاقـات القـوة و السـيادة القائمـة فـي مجتمـع معـين , و كـبح أيـــة نزعـــات إبداعيـــة تلقائيـــة تتجـــاوز مـــا هـــو مـــألوف .

_5لكـل هـا فـان العقـل بـرغم تحـرره مـن الأسـاطير إلا أنـه تحـول هـو نفسـه إلـى قـوة عقلانيـة تحـاول السـيطرة علـى الطبيعـة و علـى الإنسـان و ترشـيد الحيـاة بشـكل يـؤدي الـى نفيـة الحريـة تمامـاً , كمـا يتـدّى فـي البنـى الرشـيدة الحديثـة للتسـلط , و لـذا فالتقـدم أدّى إلـى عكسـه و التنـوير أدّى الـى الشـمولية و المجتمعـات الحديثـة التـى تسـعى الـى الفرديـة همشـت الفـرد , و لـذا فهـي فـي طريقهـا إلـى شـكل مـن أشـكال البربريـة تتقـدم بخطـى حثيثـة ((نحـو الجحـيم)) , و مـا جـرى فـي معسـكرات الإبـادة النازيـة مـا هـو إلا جـزء عضـوي مـن هـذه المسـيرة الشـيطانية .

و قـد رصـد بـورجين هابرمـاس , أخـر ممثلـي مدرسـة فرانكفـورت , ظـاهرة العقـــل الأداتـــي و تـــرقيض الإنســـان فـــي المجتمعـــات الحديثـــة و سـماها اسـتعمار الحيـاة , أي عـالم الموجـود المتعـين المعـاش الـذي توجـد فيـه الـذات و تتفاعـل معـه و تسـتمد وجودهـا منـه , فالترشـيد الأداتـي و الحوسـلة المتزايـدة لمجـالات متناميـة فـي الحيـاة الإجتماعيـة , مـن قبـل الأنظمـة و المؤسسـات الاقتصـادية و السياسـية و الإداريـة , يـؤدي الـى

استعباد الإنسان , و إلى تقليص عالم الحياة و هيمنة عالم الأداة , و استعباد كثير من جوانب حياته الثرية و إمكانيته الكامنة المتنوعة .

و في مقابل العقل الأداتي يضع مفكرو مدرسة فرانكفورت العقل النقدي و العبارة ترجمة للمصطلح الإنجليزي (critical reason) و العقل النقدي : هو المفهوم الأساسي في كتابات مفكري مدرسة فرانكفورت (النظرية النقدية) و يقال له أيضاً : العقل الكلي أو العقل الموضوعي في مقابل العقل الأداتي أو العقل الجزئي أو العقل الذاتي , و كلمة نقدي هنا مبهمة نوعاً ما , و تعود الى مفهوم كانط في النقد , فكانط كان يرى عمله باعتباره جزءًا من المشروع التنويري الغربي الذي رفض جميع الحجج التقليدية القائمة و أخضع كل شيء للنقد , و لكنه لم يتوقف عند هذا الحد و غنما خذ خطوة للإمام , و أخضع العقل للعملية النقدية ذاتها , أي أن كانط أخضع أداة الاستنارة الكبرى للنقد و بيّن حدودها الضيقة , متجاوزاً بذلك عقلانية عصر الاستنارة , أي أن هناك عقلانيتين: عقلانية مباشرة و سطحية , و عقلانية أكثر عمقاً و هذا هو الذي ترجم نفسه إلى عقلانية العقل الأداتي , و عقلانية العقل النقدي.

و يتسم العقل النقدي بما يلي :

_1لا ينظر العقل النقدي إلى الإنسان باعتياره جزءاً من كل أكبر منه يعيش داخل أشكال إجتماعية ثابتة معطاة , مُستوعَباً تماماً فيها و في تقسيم العمل القائم , و إنما أعتباره كياناً مستقلاً مبدعاً لكل ما حوله من الأشكال التاريخية و الاجتماعية .

_2العقل النقدي يدرك العالم , الطبيعة و الإنسان , لا كما تدركه العلوم الطبيعية باعتباره مُعطى ثابتاً و وضعاً قائماً و سطحاً صلباً , و إنما يدركه باعتباره وضعاً قائماً و إمكانية كامنة.

_3العقل النقدي لا يقنع بإدراك الجزئيات المباشرة , فهو قادر على إدراك الحقيقة الكلية و الغاية من الوجود الإنساني .

_4العقل النقدي قادر على التعرف على الإنسان و دوافعه و إمكانيته و الغرض من وجوده .

_5العقل النقدي لكل ما سبق , قادر على تجاوز الذات الضيقة و الإجراءات و التفاصيل المباشرة و الحاضر و الأمر الواقع , و لذا يمكن تسمية العقل النقدي بـ العقل المتجاوز , و لذا فهو لا يذعن لما هو قائم و يتقبله , و إنما يمكنه القيام بجهد نقدي تجاه الأفكار و

الممارسات و العلاقات السائدة و البحث في جذور الأشياء و أصولها و في المصالح الكامنة وراءها و المعارف المرتبطة بهذه المصالح , و هذا هو الجانب التفكيكي في العقل النقدي .

_6الحقيقة الكلية التي يدركها العقل النقدي و الإمكانيات الكامنة التي ليست أموراً مجردة متجاوزة للإنسان , الفكرة الهيجلية الملطقة و إنما كامنة في الإنسان ذاته , و العقل النقدي قادر على رؤيتها في كمونها هذا ؛ أي أن الإنسان يحل على الفكرة المطلقة.